

من الشرق
والغرب

قصة بني إسرائيل • مِنْ مَعَارِى الْقُرْآن •

بقلم: عبدالمصيم فوره

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب
العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« وبعد »

فقد توخيت في هذا الكتاب أن استخلص قصة
بنى اسرائيل في تاريخهم القديم الطويل ، كما
تفهم من القرآن ليجد القراء في ضوء الاسترشاد
ياحداتهم تفسيرا الآيات الموجزة المركزة التي
تذكرهم بمواقفهم مع الله ، ومع الأنبياء الذين
بعثهم الله فيهم ، ومع الناس الذين اتصلوا بهم
أو عاشوا بينهم ، وسيجد القراء في هذا الجزء
التأويل المعقول والتفسير المقبول لما اشتبه على
كثير من الآيات الخاصة بهؤلاء ..

والله أسأل أن يجنبنا الزيف في الرأي وأن يسند
خطانا على الحق والصراط المستقيم .

عبد الرحيم فوده

يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم
واوفوا بعهدي اوف بعهديكم واياي فارهيون، وآمنوا بما
انزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا اول كافر به ولا
تشتروا بآياتي ثمنا قليلا واياي فاتقون ، ولا تلبسوا
الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون واقيموا
الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين •



قصة بنى اسرائيل :

اسرائيل وبنو اسرائيل

قيل ان كلمة « اسرا » معناها فى العبرية « عبد » او « صلفوة » وكلمة « ايل » معناها « الله » ، فمعنى اسرائيل عبد الله او صلفوة الله ، وهو لقب يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام .

اما بنو اسرائيل فهم اولاد يعقوب وذرياتهم الذين كثروا وانتشروا فى جوانب هذه الارض ، واستشرى معهم الفساد فى كل البلاد التى نزلوا بها .

ولد لاسرائيل « يعقوب » كما هو معروف اثنا عشر ولدا ذكرا . منهم يوسف عليه السلام ، فكان منهم مع اخيهم الصغير ان حسدوه ، وحقدوا عليه ، وكادوا له . لان اباہ كان يؤثره عليهم بكثير من الحب ، فالقوه فى غيابة الحب ، ليخلوا لهم وجه ابيهم ، وجادوا اباہم عشاء ليكون قالوا يا ابانا انا ذهبنا نستيق وتركنا يوسف عند متاعنا فاكله الذئب وما انت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » وجادوا على قميصه بدم كذب ، ليخدعوه ويقتنوه بانهم صادقون فقال « بل سولت لكم انفسكم امرا فصبر جميل » .

وقد كان من امر يوسف ان خرج من البشر متعلقا بدلو ، ثم بيعح لعزیز مصر بثمن بخس دراهم مملوذة ، ثم تقلبت به الاحوال حتى صار امينا على خزانةھا . او وزيرا للمالية والاقتصاد والتبوين فيها .

وكان من امر اخوته ان قدموا اليه مع ابيهم وقالوا « تالله لقد آثرناک الله علينا وان كنا لحاطئين » قال لا تثریب علیکم اليوم یغفر الله لکم وهو

أرحم الراحمين » ثم عاشوا في ضيافة مصر وعاش بعدهم أبناؤهم وذرياتهم حتى أخرجوا منها مع موسى عليه السلام ..

ثم كان منهم حتى الآن مالم يكن لجنس يطلق عليه اسم الانسان ، وسنقرأ ونسمع أنباء هؤلاء ممن « لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء » .

•• خليط من الناس ••

قد يقع في روع القارئ أن اليهود الموزعين في أنحاء العالم الآن من بني اسرائيل . وأن كلمة اسرائيل التي نقلوها من معناها الأصلي وجعلوها اسما للأرض التي احتلوها من فلسطين تعبر بصدق عن جنس سكان هذه الأرض الآن ..

والواقع الذي تنطق به الوقائع التاريخية • والحقائق العلمية أن أكثر اليهود لاتصلهم بإسرائيل • ولا بالأرض التي أطلقوا عليها اسم اسرائيل • رابطة نسب أو سبب ، وأن هؤلاء الذين تسللوا الى الأرض المقدسة خلف الاستعمار الانجليزي • وبمحرك الدولار الأمريكي ليسوا جميعا من جنس بني اسرائيل ، وإنما هم خليط من الناس كما يقرر ذلك علماء الاجناس •

فقد احتكم هؤلاء العلماء الى المقياس المتفق عليه للتمييز بين السلالات البشرية ، وهو يقوم على طائفة من الصفات الجسمية • ثم انتهوا بعد التطبيق والمقارنة والموازنة الى أن اليهود ينتمون الى جميع الاجناس •

وقد بسط ذلك الدكتور محمد عوض محمد في كتابه « الاستعمار والمذاهب الاستعمارية » فليرجع اليه من شاء •

أما تعلق اليهود على اختلاف أجناسهم بفلسطين فليس مرجعه الحنين الروحي الى ههنا الأرض ، فقد كان بنو اسرائيل قبل أن يكون هؤلاء يقولون لموسى « ان فيها قوما جبارين ، وأنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقَاتلَا انا هاهنا قاعدون » •

ولكنها المنافع والمطامع . والآمال التي تمنىهم بها الصهيونية العالمية ، وتخلعهم بها السياسة الاستعمارية ، وسيجلون فيها بأذن الله مصارعهم يوم يتحقق فيهم قوله تعالى « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا » .

خصائصهم العامة

واليهود مع اختلاف أجناسهم تجمعهم خصائص نفسية مشتركة ، واتجاهات عقلية عامة ، وسلوك في الحياة تمليه المنافع والمطامع ، وتوجهه هذه الخصائص والصفات .

ولو عرفهم العرب والمسلمون كما يصورهم القرآن . أو كما عرفهم الأوروبيون بصفة خاصة ، والمسيحيون بصفة عامة ، لأشعروهم بما يجب أن يشعروا به في بلادهم ، ولكان لهم من وراء ذلك أن تتبخر الأوهام والاحلام التي يطوف بها خيال هؤلاء حول فلسطين .

ولكنهم غفلوا عنهم ، وتجاهلواهم ، وتساهلوا معهم ، ونسوا أن الله حذرهم إياهم وقال « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » فكان منهم ومن هؤلاء ما كان .

كان من العرب والمسلمين أن تقطعت بهم الأسباب ، وصاروا شيعا وصارت أرضهم قطعا ، وصار أمرهم في بلادهم إلى ما صار إليه أمرهم في الاندلس حين عبر عنه الشاعر بقوله :

صار بكل بقعة ملك وصاح فوق كل غصن ديك

هذا في حين آل أمر الصهيونية العالمية إلى لواء تتطلع إليه أعين الموزعين من اليهود فوق كل أرض : وتحت كل سماء ، وفي حين آل أمر الصهيونية والاستعمار إلى كتلة موحدة ، تتأهب للفتك بهم جميعا .

ولكن رحمة الله بالعرب والمسلمين مستهم بروح منه ، فنفضوا عنهم غبار القفلة ، ونهضوا لمناهضة الاستعمار والصهيونية ، ولا يزال وعد الله أمام أعينهم يذكرهم بطريق الخير والحياة الطيبة « وعد الله الذين آمنوا

حنكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم
أمننا » .

سماتهم وصفاتهم

« يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى
أوف بعهدي وإياى فارهبون » .

كلمة «نعم» تشمل كل ما أنعم الله به من سعة . ودعة . ومال .
ولبن عيش ، وقد أنعم الله على بنى اسرائيل بنعم خاصة لم يذكرها بما
ينبغى لها من ذكر وشكر ، وسيأتى الحديث عنها .

«وعهد الله» يحتمل كما تقدم الكلام فيه أن يكون المراد به أوامره
ووصاياه ، وأن يكون المراد به الميثاق الذى تم الاتفاق عليه بين الناس
والله عن طريق رسله اليهم – أو عن طريق العقل لانه حجة عليهم .

أما الرهبة فمعناها الخوف ، وقد قيل : لان ترهب خير من أن
ترحم ، بضم التاء فى الكلمتين ، فعنى وإياى فارهبون . ارهبونى ولا
ترهبوا غيرى ، وذلك يشعر بأنهم يخشون الناس ولا يخشون الله ، كما
يشعر قوله «اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم» بأنهم لم يكونوا يذكرونها،
أو كانوا يذكرونها بغير ما ينبغى من شكر المنعم المتفضل بها ، وكما يشعر
قوله « وأوفوا بعهدى أوف بعهديكم » بأنهم كما نعتهم الله فى موضع آخر
« ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل
وفسدون فى الارض » .

ولهذا تخلى الله عنهم، ووكلمهم الى الناس يضطهدونهم فى كل أرض،
ويطاردونهم فى كل مكان » واذ تأذن ربك ليعتثن عليهم الى يوم القيامة من
يسوءهم سوء العذاب » .

هذه بعض سماتهم وصفاتهم التى نلمحها فى أول خطاب لبنى
اسرائيل تطالعه فى القرآن .

فهم لا يشكرون ما يسدى اليهم ، ولا يحافظون على عهد يعقد معهم،
ولا يستقيمون فى معاملة الناس الا على أساس الخوف منهم .

أول الكافرين

« وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا
تفتشروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون » .
ما كان معهم : هو التوراة

وما أنزله الله مصدقا لما معهم هو القرآن
ومعنى أن القرآن مصدق للتوراة انه موافق لها فيما اشتملت عليه
من أحكام الله وأصول شرعه ، فهو لا يكذبها فيما أنزله الله فيها ، وإن
كان مهيمنا عليها كما يقول الله في موضع آخر « ومهيمنا عليه » .

واشترأؤهم بآيات الله ثمنا قليلا . . ويقصد به استبدالهم ما كانوا
يحرصون عليه من الرياسة في قومهم ، وما كان يجلب اليهم من زرع
وثمار ، أو يهدى اليهم . أو يرشون به لقاء تحريفهم الكلم عن مواضعه ،
وتسهيل ما يصعب على قومهم من التكاليف التي أمرهم الله بها .

لقد كان المنطق يقتضيهم - وقد وجد الكتاب الذي أنزله الله على
محمد مصدقا لما معهم من التوراة - أن يؤمنوا به ، لأن الايمان بما فيها
يقتضى الايمان بما فيه ، اذ هو مصدق لها ، فلا معنى للايمان بها مع
الكفر به ،

ومن ثم طالبهم الله أن يؤمنوا به ، ونهاهم أن يكونوا أول كافر به .
تعريضا بما كان منهم على خلاف ما كان يتوقع وينتظر ، فقد كانوا « من
قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » وقال
لهم يشدد التكبر عليهم لا تستبدلوا بآياتي أى ثمن . فانه - مهما يكن -
قليل ، لا يبرر الاثم والجرم بتحريف آياتي . أو كتمانها . أو خلطها
بغيرها مما لم ينزل في التوراة « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم
يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم
وويل لهم مما يكسبون » .

وهكذا نرى في هذه الآية ، التناقض الذي يقعون فيه حين يكفرون
بالقرآن ويزعمون أنهم يؤمنون بالتوراة ، والتجارة الخاسرة اذ يستبدلون
بآيات الله ثمنا مهما يكن شأنه فانه تافه حقير ، هذا الى المبادرة بالكفر
حيث كان يجب أن يكونوا أول المؤمنين .

سر هذين التعبيرين

الرهبة كما قدمنا هي الخوف والتقوى مأخوذة من الوقاية ، وهي الافراط في المحافظة والصيانة كما بينا عند الحديث عن المتقين .

وقد ختم الله الآية الاولى التى خاطب بها عامة بنى اسرائيل بقوله «واياى فارهبون» ، وختم الآية الثانية التى يبدو انها موجهة الى خاصتهم بقوله «واياى فاتقون» ، فما سر هذين التعبيرين ؟

ان التعبيرين بالنظام الذى قام عليه كل منهما يفيدان الاختصاص ، فانك تقول : «أدعوك» فيفيد كلامك أن دعائك تعلق بمن تخاطبه ، ولا يمنع أنك تدعوه وتدعو غيره ، أما اذا قلت «اياك أدعوه» فإن دعائك يكون مختصا به . مقصورا عليه ، لا يتعلق بشيء .

وكذلك الحال فى قوله تعالى لعامة بنى اسرائيل «واياى فارهبون» وقوله لخاصتهم «واياى فاتقون» فانه يدل على طلب تخصيص الله بالخوف عند العامة ، وطلب تخصيصها بالتقوى عند الخاصة . وهم الاحبار والعلماء والرؤساء .

واذا كانت التقوى تفيد معنى زائدا على الخوف . وهو عمل ما يقى العذاب ، بامتنال أوامر الله واجتناب نواهيه ، كان فى التعبيرين إشارة الى أمرين :-

الاول : ان عامة بنى اسرائيل يشتركون مع خاصتهم فى معنى عام وهو الخوف من الناس دون الله .

الثانى : ان خاصتهم - وهم علماءهم وزعماءهم - يزيدون على عامتهم اثما آخر وظلما أكبر . لانهم - وهم أهل علم - يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلبسون الحق بالباطل ويكتنون الحق وهم يعلمون .

تلبس إبليس

« ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتنوا الحق وأنتم تعلمون »

اللبس - يفتح اللام - هو الخلط ، تقول لبست الشيء بالشئ بمعنى خلطته به ، ولا بست فلانا حتى عرفته بمعنى خلطته .

وقد عرفنا الحق والباطل فيما سبق •

فالمعنى - والخطاب لخاصة بنى اسرائيل كما قدمنا - لا تكتبوا في التوراة ما ليس منها فيختلط الحق الذى أنزله الله فيها بالباطل الذى تكتبونه وتنسبونه الى الله ، فان ذلك - على ما فيه من اختلاق الكذب والافتراء على الله - يجعل الحق مشتبها على الناس بالباطل • فيزلون ويضلون ، وتكونون سبب زلهم واضلالهم ، وقد يكون من وراء هذا الخلط بين الحق والباطل أن يخفى الحق وتلتبس مصالحه ، وبذلك تكونون قد أخفيتموه وكتمتموه عن عمد وقصد ، وعن فهم وعلم ، وذلك اثم لا عذر فيه ولا عفو عنه ، فقد يعذر الجاهل حين يرتكب ظلما ، أو يقترب انما ، أما العالم الذى يعمد الى التضليل ، ويقصد الى التدليس والتلبيس • فلا عذر له فيما يقدم عليه من اثم وعظم •

وكان أحبار اليهود - مع ذلك - ينكرون أنهم يجدون صفة محمد عليه السلام فى التوراة وهى مكتوبة فيها ، ويمحون منها بعض الاحكام ويكتبون بعضها على خلاف حقيقتها ، ومن ثم كانوا يكتبون الحق وهم يعلمون •

وهذا - دون شك - عمل من أعمال الشيطان ، بدليل قوله تعالى « انما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » بل هو أكبر وأخطر من عمل الشيطان ، لانهم : « يلبسون الحق بالباطل ويكتبون الحق وهم يعلمون » •

ولكننا لم نجد عنوانا ينطبق على ما عرفوا به من تدليس وتلبيس أكثر من « تلبيس إبليس » وان كان ذلك اسما لكتاب حافل شامل للعلامة ابن الجوزى •

التواء الطبع

« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين »

هذه هى النتيجة الطبيعية لما سبق من الاوامر التى خاطب الله بها بنى اسرائيل •

فان تذكركم ما أنعم الله به عليهم يستوجب الايمان والشكر والبر
بمن يستحق البر .

والوفاء بعهده يقتضى امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، والتمسك
بالميثاق الذى أخذه الله عليهم عن طريق رسله اليهم . أو عن طريق عقولهم
التي جعلها حجة عليهم ، وقد أخذ عليهم العهد اذا جاءهم رسول مصدق
لما معهم أن يؤمنوا به وينصروه .

والخوف من الله دون غيره يستلزم الشجاعة فى اعلان الحق . والجهر
به . والدفاع عنه .

والايمان بالتوراة يستوجب الايمان بالقرآن لأنه جاء مصدقا لما
فيها ، والايمان بالقرآن يستلزم الايمان بالرسول الذى أنزل عليه ،
لأنه - أى القرآن - المعجزة الدالة على أن ما يبلغه النبى عن الله حق.
ومصدق .

بل ان الايمان بالتوراة يستوجب الايمان بمحمد عليه السلام .
لأنهم يجدونه مكتوبا فيها ، ويجدون فى أحواله وأعماله وصفاته وسماته
ما يوافق ويطابق الذى يجلبونه عنه فيها .

بل انهم هاجروا الى بلاد العرب ، وآثروا الإقامة فيها مدفوعين.
بالأمل فى أن يدركوا عهده ، ويستنصروه على الوثنيين الظفأة الذين
شتتوهم وشردوهم .

لهذا كان طبيعيا - لو كان فى طبيعتهم الاستقامة - أن يقيموا
الصلاة ويؤتوا الزكاة ، ويركعوا مع الراكعين . . أن يدخلوا فى الاسلام .
ويقوموا شعائره ، ويجاهدوا فى سبيل الله تحت لوائه .

ولكن التواء الطبع . وفساد الطوية ، لا يستقيم معها المنطق.
القويم ، ولا يستبين أمامهما الصراط المستقيم .

الربا . . لا الزكاة . .

الزكاة فى الأصل النمو والزيادة .

تقول زكا المال والزرع بمعنى نما ، ثم اتسع استعمال الكلمة .
وقيل « رجل زكى » بمعنى زائد فى الخير والفضل ، ومن ذلك قوله تعالى

« فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » أى لا تمدحوها وتنسبوها الى الزكاة أو الزكاة • وهما زيادة فى الخير والفضل •

ثم صارت الكلمة تطلق على ما يخرجها الانسان من ماله ليزكيه به . وينميهِ ، فان الزكاة سبب فى نمو المال وزيادته كما يقول الله تعالى ه يحق الله الربا ويربى الصدقات •

وتطلق كلمة الزكاة كذلك على صفوة الشيء والجيد منه ، وفى ذلك اشعار بأن ما تقدمه الى مستحقه من الفقراء والمساكين ينبغي أن يكون من الجيد الذى يحرص عليه ، لا الردى الذى يزهد فيه ، فقد قال تعالى « ولا تيمموا الحبث منه تنفقون ولستم بأخديه الا أن تمضوا فيه » ، أى لا تمضوا الى الحبث الردى من أموالكم لتنفقوا منه وتصدقوا به ، وهو اذا قدم اليكم لم تأخذوه الا على مضض منه ، واغماض عنه ، وقد جاء فى الحديث « الله طيب لا يقبل الا الطيب »

ومن ثم يحسن عند أداء الزكاة الجمع بين هذين المعنيين ، بأن يكون القدر الذى يخرجها الانسان تمام النصاب من خيار امواله •

ولعلك لم تنس أن الأمر فى هذه الآية موجه الى بنى اسرائيل ، وان كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب - ولكن •• كيف يمثلونه . وقد جبلوا على الحرص والبخل والشح و « اخذهم الربا وقد نهوا عنه . واكلهم أموال الناس بالباطل » ، وكيف يحسن عند اهل الربا ما يحسن عند اهل الزكاة ؟

ان الربا زيادة تؤخذ على رأس المال من المقرض أو المدين ، والزكاة زيادة تدفع عن رأس المال للفقراء والمحتاجين ، وبينهما من الفرق ما بين الرذيلة والفضيلة • والشح • والجلود • ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله • وما آتيتم من زكاة ترديدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » • يحق الله الربا ويربى الصدقات •

اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم
تتلون الكتاب افلا تعقلون (٤٤) واستمعينوا بالصبر
والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين (٤٥) الذين
يظنون انهم ملائكة ربهم وانهم اليه راجعون (٤٦) يا بني
اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واني فضلتكم
على العالمين (٤٧) واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس
شيئا ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم
ينصرون (٤٨) •



مخالفة اقوالهم لافعالهم

« أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم »

كلمة البر على قلة حروفها تسع كل معروف وغير .

فلاحسنان الى الوالدين بر ، ولهذا يقال فلان بر بوالديه أو بار بهما
— بفتح الباء فيهما — أى محسن اليهما .

وصلة الفقراء والأقربين بر ، والصدق فى الحديث بر ، والحق الى
بيت الله بر ، ومن ثم يقال حج مبرور أى مقبول ومصحوب بخير كثير .

وتلاوة الكتاب قراءته ، فان أصل التلاوة مأخوذ من التلو وهو
الاتباع . تقول : تلوت عليا بمعنى تبعته ، وتالت الأمور أى تبع بعضها
بعضا ، وتقول مازلت أتلوه حتى أتليتته بمعنى مازلت أتبعه حتى سبقته
وجملته يتلونى ويصير تابعا لى .

والاستفهام فى الآية ليس على الحقيقة ، وانما هو لتقرير ماكان عليه
الأخبار من بنى اسرائيل ، اذ كانوا يقولون مالا يفعلون ، ويأمرون الناس
بالبر وسعة المعروف والخير دون أن يأخذوا بذلك أنفسهم ، بل كانوا
يتركونها كأنهم ينسونها .

وايراد الاستفهام على هذه الصورة وبهذا الاسلوب يتضمن مع ذلك
التوبيخ لهم على ماكانوا يقومون فيه من التعارض بين أقوالهم وأفعالهم ،
والتناقض بين كلامهم وأفعالهم ، وذلك مما يستوجب مقت الله وغضبه
« كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » كما يتضمن التعجب من أن
يكون هذا حالهم وهم يقرءون التوراة وفيها الامر بالبر . والنهى عن الحيانة
والغدر . والوعيد على مخالفة القول للفعل . ونعت النبى الذى سيتمم الله
به النبوة والرسالات .

وقوله تعالى : « أفلا تعقلون » زيادة توبيخ لهم ، كأنهم بهذا السلوك
الفئائن المقيت لا عقل لهم .

مشقة الطاعة عليهم

« واستمعنوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون » .

علم الله من بنى اسرائيل - عامتهم وخاصتهم - أن طبيعتهم يشق عليها احتمال ما أمرهم به من شكر نعمه - والوفاء بعهده - والخوف منه دون غيره . والايمان بالقرآن . والأمانة في اعلان الحق . وعدم التدليس والتلبيس في التوراة . ثم الدخول مع المسلمين فيما أخذوا به أنفسهم من اقامة شعائر الاسلام والعمل بشريعته التي أودع الله فيها كل أصول الديانات والشرائع السماوية .

وقد أرشدهم الى الطريق الذي يسهل عليهم امتثال هذه الأوامر واحتمال هذه التكاليف . وقبول هذا الدين العام ، وهو الجمع بين الصبر والصلاة ، فان الصبر يكبح جماح الشهوات والنزوات ، ويعين على احتمال المتاعب واستسهال المصاعب ، والصلاة كما يقول الله « تنهى عن الفحشاء والمنكر » ، وكلمة المنكر تسع كل ما ينكره شرع الله . وطبع الناس . وقد كان صلى الله عليه وسلم « اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة فيجد فيها ما يخفف خطبه . ويفرج كربه » .

ولكن هذا العلاج - أيضا - لا ينجع ولا ينفع في بنى اسرائيل فان الصلاة والاستعانة بالصلاة أو بالصبر والصلاة شاقة كذلك عليهم ، لأنهم لا يخشون الله ولا يخشعون أمامه مع ما عرف عنهم من الجبن والخوف من الناس .

انما تسهل الصلاة وتسهل الاستعانة بالصلاة . وبالجمع بين الصبر والصلاة ، على الذين يخشون الله ، ويشعرون بالذل أمامه . والخشوع لأمره ، ويعتقدون أنهم سيلاقونه ، وسيرجعون اليه ، وسيحاسبون أمامه على ما قدموا من خير وشر ، وليس هؤلاء كذلك . أو ليس أكثرهم كذلك .

تعليق وتاويل

لماذا كانت الصلاة . والاستعانة بالصبر والصلاة شاقة ثقيلة على غير الخاشعين ، مع أن الخشوع نفسه ثقيل ، فإذا أضيف اليه ثقل الصبر وثقل الصلاة كان على النفس أكثر ثقلًا ومللًا .

لقد أجب عن ذلك بأن توقع تحقيق ما ادخره الله للصابرين على الشدائد أو على الصلاة وما يلزم لها من شروط ومجاهدة نفس • يهون على الإنسان كل شاق ، ويسهل له كل صعب ، وقد ضرب المثل في ذلك بعامل يهد إليه بعمل ، ويوعده عليه بأجر زائد مض ، فانه يزاوله برغبة ونشاط وانسراح صدر ، بل قد يستلذ هذا العمل بالأمل الذي يتطلع الى تحقيقه ، ويجد في تصويره نشوة وجدلا ، على حد قول الشاعر •

لاستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انتقادت الآمال الا لصابر

ولو تأملنا معنى قول الله « الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون » لوجدنا فيه هذا التلطيل للتسهيل المستفاد من قوله سبحانه « وانها لكبيرة الا على الخاشعين » •

بقي أن نعرف لماذا عبر بكلمة « يظنون » في قوله تعالى « الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم » مع أن المراد هو العلم واليقين اذا كان المراد بلقاء ربهم هو البعث ، فكيف عبر بالظن - وهو ادراك الطرف الراجع - عن اليقين وهو العلم الجازم ؟

انك تدرك السر اذا تأملت معنى « ملاقو ربهم » وفهمته على معنى أنهم ملاقة ثوابه ، وهو ما تتوقعه وترجوه نفوس الخاشعين الذين يدعون ربهم خوفا وطمعا • ولا تجزم بوجود الحصول عليه والوصول اليه ، اذ أن المؤمن لفرط خوفه من الله لا يطمئن الى أنه قد ضمن رضوانه وثوابه ، بل يتطلع اليه ويرجوه •

هذا الى أن الظن قد يوضع موضع اليقين • كما في هذه الآية اذا خسر لقاء ربهم بالبعث ، فانه لا سبيل الى الشك فيه عند المؤمن ، وكما في قول النابغة : « فان مظنة الجهل الشباب » فان الظن هنا بمعنى اليقين •

مواجهة الحقائق

بعد هذه الأصول العامة التي طالب الله بها بني اسرائيل • وراينا من خلالها ما تنطوي عليه طبائعهم من الكفر والغدر والمكر • ولبس الحق بالباطل • وكتمان الحق وهم يعلمون أنه حق • و • • الى آخر ما ذكره من سماتهم. وصفاتهم التي تشف عنها الآيات السابقة ، سنرى فيما سيأتى

عرضا تفصيليا للنعم التي كفروها ولم يشكروها ، وللمواقف المنكرة التي
تدمغ تاريخهم بطابع الجحود . ونقض العهد . والافساد فى الأرض .
والحرص على الحياة . والتكالب على جمع المال . مع الشسح والبخل .
و « أخذهم الربا وقد نهوا عنه » و . و . الى آخر ما سنرى .

وقبل أن ندخل فى تفصيل ذلك يحسن أن نقدم بين يدى هذا
الموضوع اشارة تاريخية الى المعالم البارزة فى حياة هؤلاء .

لقد عرفنا أن اول عهد بنى اسرائيل بمصر كان حين صار يوسف
عليه السلام امينا على خزانها . وما تخرجه أرضها من الغلات والحبرات ،
وكان ذلك فى عهد العمالة . وهم الذين شغلوا تاريخ مصر فيما بين الأسرة
الرابعة عشرة الى الأسرة الثامنة عشرة التى خرج منها أحسن وطردهم من
مصر .

فقد أرسل يعقوب « اسرائيل » أولاده الى مصر ومعهم الجمال والحمر
لشراء قوت أهلهم بعد أن أحسوا خطر المجاعة ، فلما رآهم يوسف عرفهم
دون أن يعرفوه ، ثم رجعوا بالطعام دون أن يدفعوا الثمن على أن يعودوا
اليه بأخيهم من أبيهم ، وكان شقيقا ليوسف عليه السلام . ولما عادوا
دبر يوسف حيلة لابقاء أخيه عنده ، فأمر بأن يدس فى رحله وعاء ، ثم
يؤذن مؤذن بأنهم سارقون ، فقالوا من وجد فى رحله الوعاء أخذ به جراه
على سرقة ، وهذه هى الرحلة الثانية .

ثم رجعوا الى أبيهم وقالوا « يا أبانا ان ابنك سرق وما شهدنا الا بما
علمنا » فقال : « يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تياسوا »
من روح الله . ولما قابلا يوسف وظهر لهم أمره وأمرهم قالوا « تالله لقد
آثرك الله علينا وان كنا لحاطئين » .

ثم عادوا الى أبيهم بقميص يوسف والقوه على وجهه فازتد بصيرا .
ثم رحل الجميع الى مصر .

فى خدمة الغزاة

وجد بنو اسرائيل بمصر فى ظل أخيههم ضليقة كريمة . وحرية
واسعة ، ثم عملوا من بعده فى خدمة الغزاة من العمالة أو الهكسويس أو
ملوك الرعاة كما يسميهم التاريخ .

وقد خيروا فى اول امرهم - كما تذكر التوراة - فى الأرض التى ينزلون بها ، فقالوا انهم رعاة ماشية ، واختاروا - أو اختار لهم يوسف - أرض « جاسان » فى شمال بلبيس ، لأنها أرض مراعى كما يحبون ، ولأنها تبعدهم عن مخالطة أهل البلاد . والاندماج فيهم . والامتزاج بهم ، اذ أنهم كانوا - ولا يزالون - يؤثرون الإقامة فى جهات خاصة بهم ، وقد يكون المسبب فى ذلك ما يقال من نفور الناس منهم .

ثم تحررت مصر بقيادة « أحمس » من حكم الصالحة أو الهكسوس ، وعاد زمام أمرها الى أبنائها فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، فبقى بنو إسرائيل كما كانوا منذ دخولها فى عهد الأسرة السادسة عشرة .

ثم ظهر منهم مايريب ، ويستوجب الحيلة والحذر . والرقابة .

ثم بدأ اضطهادهم فى عهد رمسيس الثانى ، فسخرهم فى الأعمال الشاقة دون أجر ، واستخدمهم فى بناء مدينتى « رمسيس » و « فيثوم » وفى بناء مدينة ثالثة كانت تعرف باسم « برمسيس » ومعتاه بيت أو قصر «رمسيس» كما استخدمهم فى تعبيد الطرق . وصنع « الطوب » .

وإذا كان هذا هو الاضطهاد الأول الذى عاناه هؤلاء . فإن الاضطهادات التى لاقتها وعانوها من البابليين والآشوريين واليونان والرومان ، ومن كل شعب حلوا به فى كل مكان وزمان تشهد بأن لصبر بعض العذراء قبل أن نذكر سبب اضطهادهم فيها .

••• طابور خامس •••

لم يذكر القرآن شيئاً عن عمل بنى إسرائيل فى الفترة التى أقاموها بمصر قبل أن يضطهدهم فرعون وآل فرعون ، وإنما ذكر نعمة الله عليهم إذ أنجاهم من آل فرعون ، ونعماء أخرى أسبغها عليهم فلم يقابلوها بما تستحق من شكر . وإنما تلقوها بما يتلقى به اللئيم احسان الكريم •••

ذلك أن القرآن يذكر الحادثة أو القصة بالقدر الذى تستفاد منه العبرة ويقتضيه المقام ، وليس من مقاصده أن يربط الحوادث أو أجزاء القصة ليكون وسيلة تسلية . أو تزجية للفراغ .

وقد رجعت الى التاريخ لاعرف عمل هؤلاء فى الفترة الطويلة التى
نعموا فيها بالاقامة فى مصر ، فوجدت ما يشبه أن يكون تعليلا مقبولا
للعذاب الذى حاق بهم من فرعون وآله .

يقول الدكتور « هندريك فان لون » فى كتابه الجنس البشرى الذى
طبعته ووزعته « الشعب » : وكان المصريون ينفرون أشد النفور ، ويضربون
أشد المقت لليهود الذين وفدوا على مصر من بلاد « كوش » يلتمسون المأوى
بعد تجوالهم الطويل فى الصحراء ، وهم الذين ساعدوا الخاصب الأجنبى
فرضوا أن يستخدمهم جباة للأموال .

ويقول فى موضع آخر من هذا الكتاب « فلما اجتاح الهكسوس مصر
سعى اليهود الى خدمة الغزاة الجدد ، ومن ثم تركوهم ينعمون فى مراعيهم
آمنين ، وتمكن المصريون بعد جهاد طويل من اخراج الهكسوس من وادى
النيل ، وعند ذلك حلت باليهود أيام عصيبة ، اذ نزل بهم المصريون الى
مرتبة العبيد ، وأجبروهم على العمل فى تعبيد الطرق وبناء المعابد ، وقد
استحال على اليهود الهرب لأن الجنود المصريين كانوا يحرسون حدود
البلاد » .

وقد ذكر فضيلة المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار أن رعمسيس
الثانى هو الفرعون الذى اضطهد بنى اسرائيل ، وانه - أى فرعون - كان
يخشى أن يكونوا مع أعدائه .

وبعبارة هذا العصر . كان يخشى أن يكونوا هم الطابور الخامس فى
مصر .

ليسوا كما يتوهمون ..

« يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وإنى فضلتكم
على العالمين » .

الفضل . الزيادة ، فهو ضد النقص .

والعالم . من معانيه . الكثير والجمل الفقير ، تقول رايت عالما من الناس
أى جمعا كثيرا .

وقد امتحن الله بنى اسرائيل بنعم كثيرة ، فكان منهم البطر والأشر ، وفهموا بما فيهم من اثرة و « أنانية » أن الله اصطفاهم واجتباهم وجعلهم خير شعب فى هذه الأرض .

كان الله - وهو فوق أن يتأثر بما يتأثر به الخلق - قد تأثر بهذا العنصر على ما كان عليه من أوضاع وأقدار ، فجاملهم وجعلهم كما يزعمون « شعب المختار » .

ولو كانوا يفهمون الأشياء على سلامتها واستقامتها لعرفوا قدر أنفسهم ، ولأدركوا أن الله اذا كان قد فضلهم على كثير من الخلق فليس معنى ذلك أنهم خير الخلق .

فان الفضل هو الزيادة ، وقد زادوا على غيرهم بكثرة الأنبياء الذين بعثوا فيهم ، لأن حاجتهم الى الإصلاح كانت أكثر من حاجة غيرهم ، اذ لا معنى لوجود مصلحين بين قوم صالحين ، وانما يلتبس المصلحون حيث يكثر الفساد ، وتكون الحاجة ماسة الى الإصلاح .

لقد فضلهم الله على العالمين بذلك ، وبما سنرى بعد ذلك مما سيتحدث عنه القرآن ، ولكن هذا لا يقتضى أنهم خير العالمين كما يفهمون ويزعمون ، وانما خيرهم وأبرهم هم الذين يقول الله فيهم بصريح اللفظ « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ويقول لهم « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم » .

ان خير الناس هم الذين يجدون فى دينهم فضائل كل دين ، ويفرض عليهم دينهم ان يؤمنوا بالأنبياء والرسل من كل دين ويقول الله فيهم « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

ادعاء كاذب

« واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » .

كلمة العدل والسكرات التى تؤخذ منها أو تشبهها مثل الاعتدال والتعديل . والمعدلة . ترجع الى معنى المساواة أو التسوية .

وكانت العرب تقول : اللهم لا عدل لك - بفتح العين - ويعنون أنه ليس له مثيل ، ولا شبه يضاهيه أو يساويه -

وتقول أنا لا أعدل بشوقي شاعرا آخر ، بمعنى أنى لا أسوى به أحدا من الشعراء .

وقد فسر العدل في هذه الآية بمعنى الغدية واليسدل ، لما فيهما من معنى المساواة والمعادلة والمبادلة .

وأصل الشفاعة من الشفع وهو ضم شيء إلى شيء كان فردا ليصير به اثنين ، ومن ذلك قولك شفعت الركعة بمعنى جعلتها اثنتين ، وشفعت إلى فلان وأنا شافعه وشفيعه بمعنى انضمت إليه وصرت عوناً له ، ومن ذلك قول الشاعر :

مضى زمن والناس يستشفعون بى فهل لى إلى ليلى الغداة شفيغ
وأصل النصر العون ، تقول نصرته على عدوه ، بمعنى أعلنته عليه ، وتناصر القوم ، أعان بعضهم بعضاً ، واستنصرت قومي ، طلبت نصرهم ومعونتهم .

يقول الله لبني اسرائيل - وإن كلن الحكم عاملاً لجميع الناس - اعملوا ما يقيكم عذاب يوم لا تغنى فيه نفس عن نفس شيئا ، ولا تؤخذ من انسان فدية لتحميه من العذاب . أو تنجيه من العقاب ، ولا يتقدم فيه قوى لنصرة ضعيف ، انه يوم الجزاء « يوم لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز من والده شيئا » .

وقد كان بنو اسرائيل يزعمون أن آياتهم وأنبياءهم سيشفعون لهم ، ومن ثم نرى في هذه الآية التحريض بهذا الادعاء . ويبيان أنه محض افتراء .

حوسى عليه السلام :

تحديد النسل ..

ذكرنا - أو أشرنا الى ما كان من ريبة المصريين فى بنى اسرائيل عند تأول عهدهم بهم ، وما كان من هؤلاء مع الفزاة حتى وقع فى خلد فرعون و آلهم طابور خامس .

ويضيف بعض المفسرين والمؤرخين سببا آخر الى هذه الأسباب التى نادت الى اضطهاد بنى اسرائيل وتسخيرهم فى بناء المدن وتمبيد الطرق .
«وصنع اللبن » الطوب » وما الى ذلك من الأعمال الشاقة ...»

ذلك أن عددهم كان يتزايد بكثرة التناسل والتوالد ، حتى أصبحت كثرتهم مع ما أحاط بهم من ظلال الريب والشبهات مظنة خطر يهدد كيان الدولة وسلامتها ، فخشى الملك أن يتحزبوا ضده ، ويتألبوا عليه وعلى آل مصر مع العدو الخارجى ، ورأى أن تسخيرهم فى الأعمال الشاقة يقلل من نسلهم ، ويهون عليه أمرهم ، ويقيه ويقى البلاد شرهم ، ولهذا وكل بهم من يتعصبهم حتى لا يجدوا سبيلا الى الراحة فلا يتوالدون ولا يتزايدن .

ولكن هذا العلاج أيضا لم ينجح ولم ينفع - فيما يبدو - فقد ظلوا مع ذلك - يكثررون .

ثم حدث من الأمر ما عصف بالبقية الباقية من الصير .

فقد تحدثت السكينة - كما يذكر المفسرون - بأنه سيولد من بنى اسرائيل من يكون على يديه زوال فرعون . وضياح ملكه .

وانتهى النبأ الى الملك فأمر بقتل من يولد من أبنائهم . واستبقاه من تولد من بناتهم ، وأمر جنوده والقائمين بالأمر فى البلاد أن يلقوا بكل ذكر من أبناء بنى اسرائيل فى النهر ليموت غرقا فيه .

وفى هذه الأيام العصيبة والمذبحة الرهيبة . ولد لبنى اسرائيل أمل

جديد ، وتداركتهم رحمة الله - من حيث لا يشعرون فجعلت من المولود
الجديد حبل النجاة والحياة .

لقد ولد موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب عليه السلام .

بعيدا عن العيون

ورأت أم موسى - وكان اسمها يوكابد - أن تخفى ولدها بعيدا عن
العيون ، حتى لا يقع في أيدي من يطلبون أطفال بنى اسرائيل لقتل الذكور
منهم .

وظلت تخفيه ثلاثة اشهر بين قلق عليه وأرق من أجله ، ثم خافت
أن يفتضح أمرها . وينكشف سرها ، وكادت تبدي به لولا ربط الله على
قلبها والهمها أن تصنع له صنادوقا . وتطليه بالقطران ، ثم تضع فيه
وليدها ، وتلقي به في اليم ، وهو البحر أو النهر والمراد به النيل كما جاء
في كتب التفسير .

وأوحى الله اليها « ألا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من
المرسلين » .

وفعلت ما ألهمها الله أن تفعل .

والقبت التابوت بمن فيه في النيل ، ثم طلبت الى أخته - وكان اسمها
مريم - أن تراقبه عن بعد ، وأن تتبع أثره . وتتسمع خبره .

وظلت أخته ترقبه حتى التقطه آل فرعون ، وأدخلوه بيته ، ثم علمت
أنه وقع من قلب امرأة فرعون موقع الحب والحذب والاشفاق ، وأنها وجدت
فيه قرة عين لها ولزوجها فقالت « لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذة
ولدا » .

وقنع فرعون بما سمع . . فاستبقاه .

وبرزت مشكلة تربيته . . انه لم يقبل على ثدى مرضعة من المراضع
اللاثي اخضرن لارضاعه . . وكان ذلك تدبيرا من اللطيف الحبير . . فقد
تقدمت أخته وقالت « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له
ناصرحون ؟ » .

- ثم أرشدتهم الى أمه وأما دون أن تشعرهم بأن أمه أمها وأنه أخوها .
- ورد الله الى أمه « كى تقر عينها ولا تحزن » .
- وأقبل على نديها • وعاش مدة حضائته فى رعايتها وعنايتها •

• • فى البلاط الفرعونى

بعد مدة الرضاعة التى قضاهها موسى فى كنف أمه • عاد أو أعيد الى بيت فرعون ، وربى فى ظله كما كان يربى أبناء الملوك •

ولما شب عن الطوق ظهرت بوادر ذكائه • وقوته • وشخصيته ، ثم كان له حين أدرك الشباب من العلم والحكمة ومؤهلات الزعامة فى قومه ما يفهم من قوله تعالى « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين » •

ورأى فيه بنو اسرائيل زعيما حكيما قوى البأس ، فجعلوه معاذهم وملأهم •

ورأى موسى نفسه ذخيلا فى بيت فرعون ، أصيلا فى بيت اسرائيل فجعل من نفسه حاميا لهم • ومدافعا عنهم ، واستطاع بنفوذه وقوة شخصيته ومكانته أن يكف أيدي المصريين عن بنى اسرائيل ، وأن يُلطف حدة العداء التى كان يمانيتها هؤلاء الدخلاء من أبناء البلاد الأصليين •

ثم حدث أن أخرج على حين غفلة ، فوجد مصريا يمسك باسرائيل وراهما يتشاجران ، فاستفائه الاسرائيلى على المصرى ، فاغتاط موسى وضرب المصرى بجمع يده ففضى عليه ، ثم وراه فى التراب وكتم الأمر ، فلم يعلم بذلك الا الاسرائيلى الذى نصره وأعانه •

وأحس موسى الندم على ما فعل • فقال « هذا من عمل الشيطان » ثم تاب وأناب وقال « رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فقفر له » ثم قال : « رب بما أنعمت على قلن أكون ظهيرا للمجرمين » •

ولم يكن المجرمون الذين عزم على ألا يظاهروهم ويناصروهم الا هؤلاء من بنى اسرائيل •

من القاتل ؟

ندم موسى على أن ظاهر الاسرائيل ضد المصري ، فكان من نتيجة ذلك أن قتل نفسا حرم الله قتلها ..

وعزم بعد أن تاب وأناب ألا يكون ظهيرا للمجرمين .

وهذه العبارة يستشف منها أنه - كما قدمنا - كان يستخدم نفوذه في مناصرتهم . وكف أيدي المصريين عنهم ..

ويظهر أن شبح القتل كان يلوح أمام عينيه . ويعترض طريقه أينما ذهب ، وأن خوف الثأر أو القصاص كان يملأ حياته قلقا وإرقا ، فان ذلك يمكن أن يفهم من قول الله سبحانه « فأصبح في المدينة خائفا يترقب » .

لقد عثر على جثة القتل ، واتهم بنو اسرائيل بأنهم قاتلوه ، وطلب من فرعون أن يأخذ للمصريين بحقهم من الجنة ، ولكنه أبى حتى يعرف القاتل ويرى من يشهد بأنه قاتل .

ومر موسى صباح الغد . فوجد نفس الاسرائيل الذي طلب نصرته بالأمس يطلب نصرته ويستصرخه على مصرى آخر .

وغضب موسى عليه السلام وقال له « انك لغوى مبين » ثم اتجه الى المصري ليطش به ففهم الاسرائيل أنه يريد . وصاح قائلا لموسى « انريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ان تريد الا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين » .

وسمع المصري ذلك الذى سمعه . فرجع بالبنا الى قومه .

وعرف من لم يكن يعرف أن موسى هو القاتل .

وانقد مؤتمر من أشراف المصريين للأخذ بالثأر والقصاص ..

ولكن أحد الحاضرين أسرع بالسر الى موسى وقال له : « ان الملا يأمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين » .

الى مدين ..

ولم يكذب موسى يسمع أن الملا يأمرون به ليقتلوه حتى عزم على التمتعيل بالرحيل ..

ولم يجد مع الخوف فرصة يتزود فيها لهذنه الرحلة التي لم يكن يعرف مداها ولا منتهأها ..

لقد أوشك القوم أن يحدقوا به ، وأن يطبقوا عليه ، وأن يفتكوا به ، فلا مجال للتفكير فيما وراء ذلك من تعب يضنيه • وجوع يذويه ، ومسالك يقطعها • ومهالك يرجو النجاة منها •

كان كل همه أن يفلت بعنقه من أيدي هؤلاء الذين ياتمرون به ليقتلوه ، فان أعوزه الدليل بين متاهات السهول والتلال والجبال فلن يعوزه أن يلتمس في رحمة الله دليله وسبيله ، وان كمن له الخطر في كل مكمن ومسكن فصساه يجد في رعاية الله ملاذه ومعاده •

وهكذا كانت حاله كما يقول الله « فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين ، ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل » •

وامضى ثمانى ليال - كما يقال - خائفا يترقب ..

وقطع الأرض ماشيا حافيا حتى أكلت جلد قدميه ..

والح عليه الجوع حتى أكل من ورق الشجر ، واشتد عليه التعب حتى ذاب شحمه ولحمه •

وظل في تنقل وتجووال حتى وصل « مدين » وهي - كما يقولون - بلاد حول خليج العقبة في شمالى الحجاز وجنوبى فلسطين •

وهناك وجد جماعة يتزاحمون حول ماء ليسقوا ماشيتهم ، ووجد امرأتين تمتعان غنهما بعيدا عنه •

« قال ما خطبكما • قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب انى لما أنزلت إلى من خير فقير » •

واستجاب له ربه • فلم يمض غير قليل حتى جاءته احداهما تمشى على استحياء « قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا »

الى الامن والرخاء

كان موسى جائعا • وحيدا • غريبا في أرض مدين •

وكان دعاؤه ، رب انى لما أنزلت الى من خير فقير ، يعنى ذلك وأكثر من ذلك •

فان كلمة خبر تسع كل ما كان يتطلع اليه من بر ، ولم يكن شئ عنده خيرا من أن يجد الشبع بعد الجوع ، والراحة بعد التعب ، والانس بعد الوحشة ، والسلام بعد هذه الفترة التي ملأت قلبه خوفا • وقلقا • واضطرابا واكتئابا •

وجناك الى ذاك شئ آخر حرك نخوته • وهز مروته • وأثار عاطفته ، وملا قلبه حديبا واشفاقا على الفتاتين الضعيفتين ، وعلى أبيهما الشيخ الضعيف ، ولعله حرك فيه رغبة أخرى لم يبع بها ، ولم يفصح عنها ، وانما طواها وعناها فيما كان يعنى حين قال : « رب انى لما أنزلت الى من خير فقير » •

ولعل هذه الرغبة أيضا كانت مطوية معنية فى قول الفتاتين أو احدهما « لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » فانه قول يشف عن الاحساس بالضعف • والحاجة الى المين •

عادت الفتاتان ميكرتين بغنمهما على خلاف المادة ، فارتاب والدهما فى الامر ، حتى علم قصتهما مع موسى ، ثم بعث باحدهما اليه ، فجاءته و تمشى على استحياء قالت ان أبى يدعوك ليجزيك اجر ماسقيت لنا •

ويذكر بعض المفسرين انه - عليه السلام - تبعها ، فرأى الريح تضرب ثوبها من خلفها ، وتكاد تكشف محاسنها • وتصف مفااتها ، فطلب اليها أن تتأخر عنه • وتمشى خلفه • وتصف له الطريق •

وبذلك عرفت أمانته ، كما عرفت فى السقى قوته ، ولهذا • قالت : « يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين » •

ولما قص موسى على الشيخ قصته • طمأنه وأمنه • وهناه بنجاته ثم قال له • انى أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك •

وتم عقد الزواج • ووجد موسى الانس بعد الوحشة • والشبع بعد الجوع • والامن بعد الخوف •

صهر موسى

لم يذكر القرآن اسم الشيخ الكبير الذى أصبح اليه موسى عليه السلام .

ولكن المشهور عند كثير من علماء التفسير انه شعيب عليه السلام ، وقد ذكر جماعة انه ابن أخى شعيب ، وان اسمه «يثرون» أو «يثرى» ، وقال غيرهم انه رجل مؤمن من قوم شعيب .

ويلوح لى أن اسم «شعيب» ظهر واشتهر وغلب استعماله فى غيره ممن قيل انهم أصحاب موسى ، لانهم كانوا ينتمون اليه بالقرابة أو التبعية .

وسواء اكان صهر موسى شعيبا أم غيره ممن يمتون اليه بنسب أو سبب فان القصة لا تتأثر ولا تتغير .

لقد وجد موسى ما كان يأمله ويرجوه ، فأعرس بإحدى ابنتى الشيخ الكبير على أن يأجره ثمانى سنين أو عشرة .

ووجد الشيخ ما كان يأمله ويرجوه من راع أمين قوى . يرمى غنمه بدل ابنتيه ، ومن زوج كريم تسعد به إحدى ابنتيه .

وكان لموسى الخيار فى أن يخدم صهره ثمانى سنين أو عشرة . مبرا لزوجته أو بدلا من مهر ، وقال « ذلك بينى وبينك إما الأجلين قضيت فلا عدوان على » فإذا أمضيت ثمانى سنين فليس لك أن تطالبنى باتمامها ، وإذا أمضيت عشر سنين فليس لك أن تطالبنى بزيادة عنها .

وعلى هذا تم المقد . وانمقد الاتفاق .

قد تسال ما اسم الفتاة التى تزوجها موسى ؟ فاجيبك بأن أكثر المفسرين على أن اسمها « صفورة » .

وقد أغفل القرآن ذكر اسمها . كما أغفل ذكر اسم أبيها ، وكما أغفل ذكر أسماء النساء الا مريم ابنة عمران ، فانها انفردت بمعنى تذكر به وتشهر ، وتذكر به قدرة الله التى أوجدت عيسى من غير أب كما يشير الى ذلك قوله « وجعلناها وابنها آية للعالمين » .

ولعل تكرير اسمها وتطهير سمعتها كان من القرآن قرعا لأسماع بنى اسرائيل . وقطعا لما أذاعوه من تهمة آئمة طالمة حول ولادة المسيح .

فى ظلام ليلة

قضى موسى فى خدمة حميه عشر سنين أو ثمانيا ، فقد كان له الخيار
كما قدمنا فى قضاء أى الأجلين •

ولم يعين القرآن الكريم المدة التى قضاها ، ولكن المفسرين ذكروا
أنها كانت عشر سنين ، واعتمدوا فى ذلك على حديث روى عن النبى
صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يذكر هذا الحديث لكان لنا أن نرجح ما هو
أليق بكمال الوفاء • وأخلق بمقام الانبياء •

يضاف الى ما يرجح ذلك أو يؤكده • وهو ان حماء جعل له فى
السنة الاخيرة من مدة خدمته نتاج غنمه فيها ، فحملت كلها ، وأكرمه الله
فلم يخرج خالى الوفاض صفر اليدين ، بل خرج بقطع يملأ عينه سرورا
ورقلبه اطمئنانا •

وسار به موسى مع زوجته يقطعان السهول، ويرتادان موطن العشب
والكلأ ، وينشدان المراعى الخضر ، ويجدان فى حياتهما الجديدة المستقلة
ما يملأ قلبيهما غبطة وسكينة • أو شعورا بالفربة • وحيننا الى الاستقرار،
فقد ذكرت التوراة أنهما رزقا ولدا ، وسمياه « جرشوم » وقيل ان هذا
الاسم يدل على معنى الفربة ، ويشعر بأن صاحبه غريب المولد ، وعلى ذلك
يكون مشعرا بما كان يسود حياتهما من احساس بالوحشة والبعد عن
الناس ، ونزوع الى حياة الاطمئنان • والاستقرار والامان •

وذاث ليلة لفهما الظلام ، وضلا الطريق •

كان البرد قارسا • والظلام دامسا ، والسكون رهيبا، فإذا اضطرب
الجو بحركة أو صوت فماذا يكون فى هذا الفضاء الواسع • والتلال
الراقدة • والجبال القائمة • والصخور الجاثمة • غير عويل الرياح أو
صياح الوحوش • • • ؟

وشعر موسى بالحاجة الى الضوء والدفء فأخرج زنده • وأخذ يقدسه
دون جدوى •

لم تنطلق شرارة واحدة ليشتعل بها نارا كان يرجو أن يجد فيها
الدفء المريح • والضوء الهادى •

أهل على البعد

لا يعلم الا الله ما كان يتمل في صدر موسى عليه السلام وهو مكب على زنده يقده . عساه يجود بشرارة صغيرة يضرم بها نارا كبيرة تشيع الضوء . وتجود بالدف في هذا المكان المظلم البارد .

ولا يعلم الا الله ما كان يتمل به قلبه من وساوس وهواجس بعد أن ذهبت محاولته عبثا . وأصبح صدره كليله يضره ظلام اليأس ، وتخطر فيه أشباح المخاوف ، وتطوف به صور الاوهام .

ولكنه بعد فترة - مهما تكن قصيرة فقد كانت طويلة - رأى على البعد ما بدد مخاوفه ، وحرك نشاطه ، وشرح صدره ، وأضاء نفسه بأمل جديد .

لقد رأى نارا تضيء في مكان بعيد . وتلوح له بما كان يرجوه من نور ودفء « فقال لأهله امكثوا اني آنست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » .

وترك أهله وغنمه ، وسار شاخصا الى النار . متجها اليها . عساه يرجع منها بقبس ، أو يجد عندها هدى أي هدى . . . هدى الى الطريق بعد أن ضل الطريق . أو هدى من الله يبصره برسالته في الحياة . . . أو هدى يكشف له ما كان خافيا عنه مما لا تعلمه ولا يعلمه الا الله .

ولم يكذ يقترب من النار حتى راعه منها ما رآه فيها ١٠٠

انها تتألق في عريش أخضر يكسو شجرة خضراء ، ثم لا تأكل النار من ورقها شيئا ١٠٠

وما هذا الذي يراه منها . . . ؟ انه كلما دنا منها بعدت منه . وكلما تقدم نحوها تأخرت عنه ١٠٠

وساوره الخوف . وملا قلبه ارتياها واضطرابا . . .

وهم أن يرجع ويقنع من الغنيمة بالاياب دون ضوء أو دفء .

ولكنه ما كاد يفعل حتى اقتربت الشجرة منه ، وسمع من جوفها صوتا يشيع في نفسه الأنس به . والارتياح اليه « يا موسى اني أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، لأننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » .

فى الوادى المقدس

لم تكن النار التى رآها موسى هى النار التى كان يتطلع اليها
ويلتمس عندها الدفء والضوء ، وانما كانت راية من نور تلوح له .
وتقريره بالاقدام عليها من خلال الشجرة الخضراء .

وسبحان الله أن يكون له مكان ، فانه منزّه عن المكان والحاجة الى
المكان .

وسبحانه أن يكون جسما كالنار أو النور أو أى جسم أو جرم من
الاجسام والأجرام ، فانه جل شأنه « ليس كمثله شئ » .

وسبحانه أن يكون له صسوت كأصواتنا فى مظهره أو مصدره أو
نبراته أو لهجاته ، فانه كما يقول سبحانه : « ولم يكن له كفوا أحد » .

وقف موسى متفتح الروح . منشرح الصدر . قرير العين بما يسمع
ويرى ، وعرف انه فى الوادى المقدس طوى . فأسرع وخلع نعليه امتثالا
لأمر ربه . واحتفالا لاستقبال وحيه .

ثم أراه الله بعض آياته ومعجزاته ليطمئن قلبه فقال « وما تلك
بيمينك يا موسى . قال : هى عصاى . أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى
ولى فيها مأرب أخرى » قال القها يا موسى . فالتقاها فإذا هى حية تسمى .
فلما رآها كذلك فزع منها ، وولى مدبرا يحاول الهرب ، فناداه ربه « قال
خزنها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى » فأخذها فإذا هى كما كانت :
عصاه التى عرفها وألفها .

ثم أراه آية أخرى فقال « وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من
غير سوء آية أخرى » ، فأدخل يده فى جيبه وأخرجها فإذا هى فى بياض
الثلج دون مرض أو برص ، ثم أدخلها مرة أخرى وأخرجها فإذا هى كما
كانت : يده التى عرفها وألفها .

وبذلك زاد اطمئنانه وإيمانه ، وعرف انه رسول من عند الله مؤيد
بخوارق المعجزات والآيات .

الى فرعون

بعد أن زود الله موسى عليه السلام بهاتين الآيتين : وهما تحول العصا الى حية تسعى ، وبياض أيد من غير سوء بادخالها في الجيب واخراجها منه ، أمره سبحانه أن يذهب الى فرعون لينقذ قومه بنى اسرائيل من عدوانه وطفيانته • ولكن موسى ما كاد يسمع هذا الامر حتى ساوره الخوف من جديد ، وبرزت امامه مشكلة أخرى •

انه قاتل • خرج من مصر هارباً من الذين ائتمروا به ليقتلوه فكيف يعود اليها • ويضع عنقه في قبضة الحانقين عليه • المتربصين به •
المطالبين بالثأر منه « قال رب انى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون » •

انه عيى لا يكاد يبين حين يتكلم ، فقد أصيب بحبسة في لسانه نتيجة لتأخر ارضاعه • أو لجيرة وضعتها في فمه على انها ثمرة كما يذكر بعض المفسرين ليظهر أمام فرعون انه طفل غر لا يفرق بينهما فيصقح عنه ويعفيه من القتل « قال رب انى أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطق لسانى فأرسل الى هارون » وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معي رده » •

وأجابه الله الى ما طلب ، وبدل خوفه من فرعون وآله أمناً فقال « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكنا سلطاناً فلا يصلون اليكنا بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الفالبون » •

وعاد موسى يملؤه الايمان بأنه سينجح في مهمته ورسالته ، وأخذ أهله معه فصار بهم نحو مصر •

وشاعت عناية الله أن ينزل أول ما ينزل في بيت أمه ، وأن يكون ذلك بليل ، وأن يلقاه أخوه هارون ويسأله عن اسمه • ثم يعرف وتعرف أمه أنه موسى •

وتكون المفاجأة السارة •

فرحة اللقاء

كانت مفاجأة لا تخطر ببال ولا يتصورها خيال • أن يعود موسى الى أمه وأخيه بعد أن علما من أمره ما كان منه وما كان من المصريين معه ، وبعد أن غاب عنهما هذه الشبهة الطويلة وانقطعت آثاره •

لقد نسيت أمه وأخوه أو تناسيا أمره وخبره .

ولعلها لم ينسياه . أو لعل أمه لم تنس البشارة السارة حين خافت عليه فأوحى الله اليها « أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني أنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » .

ولكن القرآن لم يذكر أنها نسيت أو تناست ، والتوراة لم تذكر أنها نسيت أو تناست . وإنما نقل فضيلة المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار . أنه نزل في جانب من الدار ، فلما جامعا هارون وأبصره سأل عنه أمه ، فأخبرته أنه ضيف ، فدعاه وجلس يتحدث اليه ، ولما عرف اسمه قام كل منهما الى صاحبه فاعتنقه .

على أية حال كان هذا اللقاء مفاجأة سارة لهارون وأم موسى إذا كان صحيحا ما ذكره الرواة . وسكت عنه القرآن والتوراة . من أن أم موسى كانت لا تزال موجودة . وانها فرحت بعودة ابنها الغائب الحبيب بعد أن يشتت من أن يعود .

ولكن أية فرحة هذه وإى سرور ذلك الذى لا يكاد يضىء فى قلب صاحبه ووجهه حتى تفشاه سحابة حزينة وظل كئيب .

ان بنى اسرائيل لا يزالون يعذبون ويستعبدون ، ويسخرون فى تعبيد الطرق . وبناء المدن . وصنع اللبن « الطوب » . فماذا يشرح صدر أم موسى وصدر هارون فى عودة موسى ، وهو ان نجا من الموت فلن ينجو من العذاب الذى يعاينه ويقاسيه بنو اسرائيل .

ولنتابع الرواة فيما سكت عنه القرآن والتوراة . ونذكر أن موسى أخبرهما بأن الله أرسله وأيده بمعجزاته وآياته ، ووعدته بنصره ، وأنه أشرك معه أخاه هارون وجعله معه رسولا الى فرعون ، ولكن أمهما مع ذلك خافت عليهما وحاولت ان تثنيهما عن عزمهما دون جدوى .

لقد كان لا بد من تنفيذ أمر الله وتبليغ رسالته .

مع فرعون

كيف تمكن موسى وأخوه هارون من لقاء فرعون ؟
وهل كان فرعون وقت ذاك هو فرعون الذى هم يقتل موسى صغيرا ؟
ثم عدل عن قتله ورباه ؟

اختلفت روايات المفسرين في الاجابة على السؤال الاول ، فبعضهم يذكر أن موسى وهارون تمسكنا من لقاء فرعون بمجرد الاستئذان ، وبعضهم يقول : انهما ظلا يترددان على بابيه مدة عامين دون أن يجدا سبيلا الى لقاءه ، حتى دخل عليه مضحكه وأخبره أن رجلا مجنوناً يقف على بابيه ويزعم أن له الها غير فرعون ، فاهتم لهذا الامر ، وطلب استدعاه فدخل عليه موسى وهارون .

ولكن النوق ، وجلال مقام الانبياء يحولان دون تصديق هذا الادعاء .

اما اسم فرعون الذى أرسل اليه موسى فهو مفتاح بن رعسيس كما كتب الى بذلك سيد فاضل لا يحضرني ذكر اسمه .

وقد بدأ اضطهاد بنى اسرائيل فى عهد رعسيس الثانى - كما قد منا - وللأسباب التى ذكرناها ، وكان لرعسيس أولاد كثيرون منهم مفتاح ، ولعله كان وليا للهد حين كان موسى فى بيت فرعون . فلما عاد موسى الى مصر كان زمام أمرها قد آل اليه ، ولعل مما يؤيد ذلك قوله لموسى فيما حكاه القرآن عنه « ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرِكَ سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين » وقول موسى يرد عليه « فعلتها اذا وأنا من الضالين » ففرت منكم لما خفتم فوهب لى ربى حكماً وجعلنى من المرسلين » .

هذا ما ظهر واشتهر من الآثار التى عثر عليها المنقبون فى تاريخ مصر القديم ، والقرآن لم يذكر ذلك لأنه لا أهمية له فى موضوعه أو فى صميم رسالته ، فانه كتاب هداية وتذكير وتبصير ، ومن ثم يكتفى من القصة والوقائع التاريخية بالقدر الذى يستخلص منه العبرة ويقتضيه المقام ، ومع ذلك يمكن استخلاص قصصه كاملةً محبوبكةً بجميع أجزائها من مواطنها المختلفة ، ورد كل جزء منها الى موضعه المناسب له .

وأغلب الظن أن فرعون الذى ربي فى بيته موسى لم يكن وقت التقاطه قد ولد له أو لزوجته ولد ، بدليل قول امرأته « لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » .

تأله الملوك

لم يكن فرعون هو الملك الوحيد في التاريخ الذي طغى وبغى . وقال لقومه « ما علمت لكم من اله غيرى » .

بل ان ذلك كان عادة كثير من الملوك في قديم الزمان . وإلى عهد قريب قبل الآن .

• كان ملوك الرومان واليونان كذلك .

وكان ملوك انجلترا منذ عدة مئات من السنين كذلك أو قريباً من ذلك .

وكان امبراطور اليابان الى عهد قريب أو هو لا يزال حتى الآن كذلك أو قريباً من ذلك .

بل سأذهب الى أبعد من هذا . فأقول ان بعض خلفاء المسلمين في العصر العباسي انحرفت طباعهم وأوضاعهم فكانوا يشهدون أن لا اله الا الله ويزعمون أنهم على الأرض ظل الله .

بل ان هذه الفكرة أخذت طابعاً فلسفياً أملاًه دون شك النفاق وضعف الأخلاق، فرأينا في النصف الثاني من القرن السادس عشر مذهب « تومس هبز » الذي يتنادى بأن سلطان الملوك سماوى . وحققهم مقدس .

فهل نعجب بعد ذلك اذا قرأنا أن فرعون تأله ، وأخذته العزة بالانتم، وقال « أنا ربكم الأعلى » ؟

لا عجب في ذلك ولا استغراب ، فقد كان الملوك أو أكثرهم يضمون أنفسهم في إطار من التقديس والاكبار ، ويوحون الى العلماء والرؤساء بأن يموهوا بذلك على العامة والدعماء ، حتى يقع في روعهم الشعور بالعجز والقصور ، فلا يفكرون في معارضتهم ومناقضتهم ، وبذلك يظل الشعب خادماً مسوداً ، ويظل الملك حاكماً محبوباً ، وقد ملح بذلك رسول الحرية ونبي البشرية حين قال لرجل هم أن يقع على قدميه « هون عليك ، أنا لست بملك ، أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

وقد كان أول ما قاله موسى لفرعون « انى رسول رب العالمين » وبذلك طعنه فيما كان يدعيه ويحرص عليه ، وأشعره بأنه مثله مريب لاله واحد يخضع له كل ما سواه .

عموم الرسالات

قد يقول قائل : ان موسى عليه السلام أرسل لبني اسرائيل ، كما أرسل شعيب الى مدين ، وهود الى عاد ، وصالح الى ثمود ، وكما أرسل كل نبي قبل خاتم الانبياء والمرسلين الى قومه دون غيرهم . فما شأن موسى وشأن ديانة مصر وفرعون مصر ؟

والجواب كما يستخلص من القرآن هو ما قلنا من ان الدعوة الى الله كانت ولا تزال طريق التحرر من ربقة الوثنية وذل العبودية ، وأن كلمة « رب العالمين » التي ألقاها موسى في اذن فرعون كانت شعاره الجامع لكل ما تطمح اليه نفسه ونفوس المضطهدين المستعبدين . من التحرر والخلاص ، والشعور بالأمن والكرامة ، فانها مثل كلمة « لا اله الا الله » تفيد أن كل ما سوى الله وما عداه مريب له . محتاج اليه . مدين لرحمته بكل ذرات جسمه . وقطرات دمه . وخطرات فكره . وخفقات قلبه ، فلا يحق لانسان أن يلتمس لنفسه قدرا فوق قدره ، ولا يجوز لغيره أن يضعه في غير ما يجب أن يكون موقعه وموضعه بين الناس ، والا وقع في شرك الشرك . وهوان الوثنية .

لقد أرسل كل نبي قبل محمد عليه السلام الى قومه دون غيرهم ، ولكن جميع الرسالات السماوية لا تختلف في موضوعها ، ولا في الأصول العامة التي قامت عليها ، بل لا يتصور أن يكون مصدرها واحدا وهو الله جل شأنه . ثم تختلف في أسسها ومقاييسها العامة ، فيكون المعبود عند آلهة في بعضها . والها واحدا في بعضها الآخر ، ويكون الغدر مثلا فضيلة في بعضها رذيلة في بعضها الآخر .

انما تختلف الديانات في بعض الفروع ، ويكون مرد اختلافها الى الظروف العارضة والأحوال المتغيرة . والطبائع المختلفة ، أما اذا وجد اختلاف في الأصول والقواعد فلا يكون الا نتيجة تحريف أو تزيف كما وقع من أحبار بني اسرائيل وغيرهم .

على ضوء هذا يمكن أن نفهم ما عناه موسى بقوله لفرعون « اني رسول رب العالمين ، حقيق على ألا أقول على الله الا الحق . قد جنتكم بيوت من ربكم فأرسل معي بني اسرائيل » .

فى القصيم ••

شعر فرعون بأنه طعن فى صميم كبريائه حين سمع موسى يقول له:
« انى رسول رب العالمين » فان كلمة « رب العالمين » تعنى أنه مثل غيره ممن
يحكمهم ويظلمهم ، وأنه يخضع كما يخضعون لقوة أعلى من قوته وقوتهم ،
وارادة أمضى من ارادته وارادتهم ، وأنه لذلك يجب أن يشعر بأنه مسود
لا معبود •

انها تعنى أن الناس جميعا سواسية أمام خالقهم ورازقهم ، فلا يحق
لواحد أن يستعبد أخاه ويتأله عليه ، ولا ينبغي لإنسان أن يمتن كرامة
إنسان ، ولا يجوز لشعب أن يبغى على شعب ، ولا لامة أن تطفئ على أمة •

ومعنى هذا أيضا أن يتاح لكل فرد الحرية التى لا يجور بها على حرية
غيره ، وأن يتاح لكل شعب الحرية التى لا ينتقص بها من حرية غيره ،
وأن تنهار الوثنية بكل صورها وألوانها لأنها تهدم الحرية ، وتهدر الكرامة
الآدمية •

ومن ثم أحس فرعون أن صرح كبريائه يوشك أن ينقض ، وأن زيف
غروره يوشك أن يتلاشى ، وأن الهالة التى كانت تحيط به فى ظلام الجهل
ستذوب ويذوب معها اغتراره واستهتاره اذا سطعت شمس هذه الحقيقة •
وعرف الناس أمره وقدره على حقيقتها •

كل هذه المعانى أو جلها خطرت فى نفس فرعون ، وكادت تفزعه
وتروعه ، ولكنه تمالك وتماسك ، ثم تجاهل وتساءل : « وما رب
العالمين » ؟ ••

وقد أجاب موسى بقوله : « رب السموات والأرض وما بينهما ان
كنتم موقنين » وهنا التفت فرعون الى من حوله وقال : « ألا تسمعون ؟ •• »
فاتجه موسى اليهم وقال « ربكم ورب آبائكم الاولين »

المخاشنة بعد الملاينة ••

كان أسلوب موسى فى خطابه مع فرعون ليئا كما أمره الله وأمن
أخاه • اذ قال لهما « فقولا له قولا ليئا لعله يتذكر أو يخشى » •

ولكن هذا اللين لم يحجب عن فرعون المعاني الكبرى التي كشفت عنها هذه الكلمات « انى رسول رب العالمين • حقيق على ألا أقول على الله . الا الحق • قد جثتكم بيينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل » •

فكان منه ما كان من التجاهل والتساؤل عن « رب العالمين » •

وكان من موسى ما كان رده عليه بقوله « رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين » •

ثم اتسعت دائرة الحوار حين اتجه فرعون الى من حوله وقال فى استنكار واستهتار « ألا تسمعون ؟ » فقد اتجه اليهم كذلك موسى وقال : « ربكم ورب آبائكم الأولين » • ومعنى ذلك أن الله كان قبل أن تكونوا ويكون فرعون ، وأنه كان قبل أن يكون آباؤكم وآباء فرعون ، وأن وجودكم بعد العدم لا يكون الا بقدرة قادر لا يسبق وجوده بعدم ، ولا ينتهى وجوده بعدم ، فهو الذى أحياكم ورباكم ورعاكم ، وأحيا وربى ورعى آباءكم وأجدادكم ، فمن حقه دون غيره أن يحمده ويعبد ..

وضاق فرعون بهذه الجراءة عليه وعلى الملأ من حوله ، فقال : « ان رسولكم الذى أرسل اليكم لجنون » •

وصار موسى الى المخاشنة بعد الملاينة ، فرد له الصاع صاعين وقال « رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون » فان تمبيره بجملة « ان كنتم تعقلون » يعنى أنهم لا عقل لهم ، ولو كانوا يعقلون لعرفوا من شواهد الآيات التى تحيط بهم فى الأرض والسموات أن الله هو وحده رب العالمين ، وأن فرعون كفره من الناس مخلوق له محتاج اليه لا يستحق العبادة منهم أو السيادة عليهم ..

وعيد وتهديد

أوغر موسى صدر فرعون بهذه المخاشنة التى انتهى اليها فى حديثه معه ، ولكن فرعون عاد فذكر نسيأة موسى فى بيته • وتربيته فيه • وتلقبه فى ظلال نعيمه . فقال له « ألم تترك فينا وليداً وليت فينا من حمرك سنين » وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين » •

ويظهر أن موسى قد تأثر بهذا العتاب الذى فهمه من الخطاب ، فقد

اعترف بأنه كان آتما ظالما حين قتل المصرى ، وذكر أن ذلك كان منه قبل النبوة لا بعدها « قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربهى حكما وجعلنى من المرسلين » .

ثم عاد فطلب من فرعون أن يمن عليه وعلى بنى اسرائيل باطلاق سراحهم ، وفك اسسارهم فقال « وتلك نعمة تمنها على أن عببت بنى اسرائيل » .

ولكن فرعون لم يستجب له ، ولم يحقق رجاءه ، بل زاد فى عتوه وغلوه . وقال : « لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين » .

قال موسى : « أو لو جئتكم بشىء مبین » .

فأجاب فرعون « ان كنت جئت بأية فات بها ان كنت من الصادقين»

وقدم له موسى آيتين .. ألقى عصاه أمامه « فإذا هى ثعبان مبین » ثم نزع يده من جيبه بعد أن أدخلها فيه « فإذا هى بيضاء للناظرين » .

ورأى الجميع ما راعهم وروعهم ، ولكن خوفهم من فرعون أو نفاقهم منهم أن يقولوا كلمة الحق ، فقالوا « ان هذا لساحر عليهم » .

الساحر العليم ..

رأى فرعون والملا من قومه عصا موسى وقد صارت حية تسمى وراوا يده بعد أن أخرجها من جيبه وقد صارت بيضاء من غير سوء ، فلم يصدقوه مع ذلك فى أنه مرسل من قبل الله رب العالمين ..

واتهموه بأنه ساحر يريد أن يستعلى هو وأخوه فى أرض مصر . ليخرجها منها أهلها . ويمكنا لبنى اسرائيل فيها ..

وانتهوا بعد التشاور . والتأمر الى رأى اتفقوا عليه ، وهو أن يرجىء فرعون موسى وأخاه دون عقاب أو عذاب حتى تبطل حجتهما وتثبت ادانتهما ..

وذلك بأن يحضر المهرة من السحرة ويجمعهم من المدائن .. ليواجه بهم هذا الساحر الماهر . كى يظهر عجزه أمامهم وأمام ما يظهر من عجائبهم وغرائبهم .

وكان للسحر منزلة عظيمة بمصر فى ذلك العصر ، فارسل فرعون فى المدائن أعوانه وعماله . يجمعون السحرة ويحشرونهم جميعا لمواجهة هذا الخطر الجديد .

واجتمع السحرة فى ميقات يوم معلوم . . يوم الزينة . أو يوم عيد وفاء النيل . . وقالوا لفرعون : « أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين ، قال نعم وانكم اذا لمن المقربين » .

ثم تقدموا مبتلين ثقة بأن لهم النصر والأجر ، وما وعدهم به فرعون من الزلفى لديه . والقرب منه ، وقالوا : « يا موسى اما أن تلقى واما أن تكون أول من ألقى » قال « بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى » ولكن الله طمانه وآمنه . وقال له : لا تخف انك أنت الأعلى . وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى » .

والقى موسى عصاه فاذا هى حية كبيرة . تلتهم حبالهم وعصيهم التى سحروا بها أعين الناس واسترهبوهم .

وخر السحرة ساجدين ، وقالوا « آمنا برب العالمين » رب موسى وهارون » .

ظاهر ثان . .

كان ذلك فى يوم مجموع له الناس . .

كانما كان فرعون يريد أن يجعل من موسى وهارون أضحوكة عامة تشيع فى أرجاء مصر كلها .

ولكنه فوجيء وفوجيء المجتمعون بما لم يكونوا يتوقعون .

ولوحظ أن السحرة كانوا أول المؤمنين برب موسى وهارون .

ورأى فرعون ذلك فكاد يتميز من الغيظ وقال « انه لكبيركم الذى علمكم السحر . فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف . ولأصلبنكم فى جذوع النخل » .

وسمع السحرة منه ذلك فلم يضعفوا أمام وعيده وتهديده ، وقالوا :
« لن نؤثر على ما جاءنا من البينات والذلي فطردنا فاقضي ما أنت قاض
انما تقضى هذه الحياة الدنيا ، اذا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا
عليه من السحر والله خير وأبقى ، انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم
لا يموت فيها ولا يحيا » .

هذا هو موقف الذين آمنوا من المصريين برب موسى وهارون -
فماذا كان موقف المؤمنين من بنى اسرائيل ؟

لقد كان موقفهم يتسم بما عرف عنهم من ضعف وخوف . كما
يفهم من قول الله فيهم « فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من .
فرعون وتلائهم أن يفتنهم » بل انهم برموا به . وضجروا منه . وقالوا
ما حكاه القرآن عنهم « أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا » .

بل انهم حتى بعد نجاتهم لم يكن منهم الا ما عرف عنهم من الجبن
والكفر . والتواء الطبع . و . و . الى آخر ما سنرى .

وقد عانى منهم موسى وهارون مالا يقاس به عمل فرعون وقومه . .
وسنرى .

لم يكونوا هناك . .

كان عدد بنى اسرائيل كبيرا حين صار موسى امامهم وزعيمهم .
ولكنهم مع هذا لم يكن لهم موقف مشرف في الصراع الذي نشب من
اجلهم بين فرعون وموسى .

وليس ادل على ذلك من أنهم بعد ذبح أبنائهم بلغ عددهم ستين
ألفا حين فروا مع موسى - كما يقال - ، فانهم - مع ما وقع عليهم من
سوء العذاب ، ومع أن موسى كان على الحق حين أعلن فرعون أنه رسول
من رب العالمين ، ومع أن دعوته كانت وسيلة لانقاذهم من الذل الذي
كانوا يقاسونونه ويعانونه - مع ذلك لا نجد لهم موقفا جهروا فيه بتأييد
موسى . أو معارضة فرعون ، كأنهم لم يكونوا هناك ، أو كأنهم ممن
يصدق عليهم قول الشاعر :

انى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا :

بل لقد كان لهم موقف يؤسف • ولا يشرف ، وهو ضيقهم بموسى •
وتبرمهم منه • وتخليهم عنه • وقولهم له « أودينا من قبل أن تأتينا
ومن بعد ما جئتنا » •

أما الذين آمنوا من أبناء شعب مصر • فقد كان إيمانهم أرسخ من
الهرم ، وكان استخفافهم بوعيد فرعون وتهديده بقطع أيديهم وأرجلهم
من خلاف وتصليبهم في جذوع النخل • مثل استخفاف شعب مصر بكل
ما تعرض له من فتن وأحداث •

فقد جاهرُوا بموقفهم • وأعلنوا تحديهم لفرعون ، وقالوا « لن
نؤثرِكَ على ما جاءنا من البينات والذي فطرنَا » ، ولم يجرِ على ألسنتهم مع
ذلك اسم هؤلاء الأذلاء الجبناء بل قالوا : آمنا برب موسى وهارون • ،
ولم يكن في ذلك ما يقض من كرامتهم أو يضمهم من النبی الجديد موضع
الصيد ، لأن إيمانهم كان برب موسى وهارون لا بسيادة موسى وهارون •

كان هناك ..

قد يتساءل البعض : وهل كان الشعب المصري هناك ؟

وإذا كان هناك ، وكان له شأن ووزن فيما كان يحدث إذ ذاك ، فلم
لم يسرع بالوقوف مع موسى أمام فرعون ، بعد أن رأى السحرة يعجزون
أمام موسى ، ويؤمنون برب هارون وموسى ؟

والجواب أنه كان هناك ، وكان له شأن ووزن فيما كان يحدث إذ
ذاك ، ولعل هذا الشأن هو الذي حال دون اسراع فرعون بقتل موسى
وأخيه ، فما كان لهما من قوة تحميهما في نظر فرعون إلا الخوف من صياح
الرأى العام بعد أن سمع ما سمع • ورأى ما رأى •

هذا إلى أن الشعب المصري كان يكره بني إسرائيل من أول يوم
عرفهم فيه ، ثم ازدادت به الكراهية والمقت حين رأهم أجراء أذلاء
يستخدمهم الهكسوس الغزاة في أعمالهم وجباية الاموال منه لهم ، ثم
تحوّلت به الكراهية إلى احتقار وازدراء حين رأى فيهم مجموعة من الفصائل
تجمع كل أنواع الرذائل ، فاعتزلهم المصريون • واعتبروا الأكل معهم

نجاسة ، ثم رحل الفزاة من أرض مصر • فبقى هؤلاء الأذئاب ليؤدوا دور الذئاب ، وكان من رمسيس ما كان مع هؤلاء الجواسيس •

فلم يكن طبيعيا من الشعب أن يتقلب بين عشية وضحاها من معاداتهم الى موالاتهم والعطف عليهم ، بل ان الذين آمنوا منه بدعوة موسى ورسالته لم تجر على السنتهم كلمة خير عن بنى اسرائيل ، وانما كان منهم المعارضة لفرعون فى قتل موسى أولا حين جاء رجل من أقصى المدينة وقال لموسى « ان الملأ يأترون بك ليقتلوك » وآخر حين قال رجل مؤمن من آل فرعون « اتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » •

•• عرب اصلا وفرعا ••

ولا يظن أحد أننى أقصد بهذا البيان لموقف شعب مصر من موسى اثارة النعرة القومية المحلية بالمعنى الذى يحاول بعض المفرضين اثارته واستغلاله ، لاشاعة الفرقة • وتمزيق شمل الوحدة بعد أن أوشكت أن تطبق على عدوها الأصيل « اسرائيل » •

فمصر عربية اصلا وفرعا • كما يشهد بذلك العلم عند أهل العلم، والمسلمون أمة واحدة « لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » كما يقول الله « وان هذه أمتكم أمة واحدة » •

فهذا البحر الذى قام بين مصر وبين جزيرة العرب ليس الا شقا أحدثه زلزال ، بل انه الى عهد قريب لم يكن بفاصل طبيعى قبل أن نصله بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق القناة •

بل ان اللغة المصرية القديمة وجد ثلثها الفاظا يمنية •

بل ان أم العرب من اسماعيل عليه السلام كانت مصرية لمها ودما كما يعرف ويعترف بذلك الأصدقاء والأعداء على السواء •

على أن مصر الآن بسلاستها ولغتها ودينها وتاريخها ومآثرها ومفاخرها • وحركة التحرير فيها وفيما يقرب منها ويبعد عنها من

الشعوب العربية الشقيقة • انما تمثل دور القلب من جسم الأمة العربية ،
وأى جرح يمس طرفا من هذا الجسم يأخذ من دماء هذا القلب ويستمد
برأه وشفاه من غذاء هذا القلب •

هذه حقيقة يعرفها الاستعمار ، ويعد خطته وبرامجه على هداها -
ليحقق أهدافه القريبة والبعيدة من الأمة العربية • والعالم الاسلامي •

وبقى أن يعرفها بعض الأغرار ممن ينخدعون برائف القول وبهرج
الكلام ، وأن يذكرها الاشرار ممن يحملون الأبواق ، ويمشون في
الأسواق •

(الى المذبحة مرة اخرى)

بعد أن فوجيء فرعون بما لم يكن يتوقع من عجز السحرة ونضيجة
الهزيمة أمام موسى بين الناس ، أحس أن صرح كبريائه بدأ ينهار ،
وأحس الملا من حوله أن مقامهم كذلك صائر الى دمار .. ونقول الملا
كما يقول القرآن الكريم ، لأن معنى الملا الجماعة المتضامنون في حمل
الأعباء • أو الذين يملثون الأعين مهابة واحتراما ، ومن ثم ندرك أن
النزاع كان بين هؤلاء من ذوى المراتب والمناصب والجاه ، وبين موسى
وهارون ، ولم يكن بنو اسرائيل ولا عامة الشعب طرفا في هذا النزاع- كما
قدمنا ، ولعل التعبير عن هؤلاء بكلمة « آل فرعون » مما يؤيد ذلك فقد
قال تعالى : « واذا أنجيناكم من آل فرعون » وكلمة « آل » أصلها « أهل »
ولا تستعمل الا مع ذوى النفوذ والخطر والشأن العظيم ، فلا يقال آل
الاسكاف أو الحداد •

وكان فزع هؤلاء وعنادهم واستكبارهم - كما هو شأن امثالهم
في كل زمان ومكان - لأن الدعوة الجديدة تصف بمقامهم ومقام زعيمهم
في البلاد ، ولعل ذلك يمكن أن يفهم من قولهم لموسى وهارون عند أول
لقاء « اجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في
الأرض » •

انهم - على أنهم عبيد لفرعون - يتمتعون بجاه المناصب ، ونفوذ

السلطان بين عامة الشعب . فإذا تكشفت خرافة أن فرعون رب ، وظهر للناس أنه مثلهم في الخضوع أمام رب العالمين . وفي الحاجة الدائمة إليه ، وأنه مع الملائكة يحكمونهم محكومون بقدرة الله وأرادته . ذاب المظهر الكاذب ، وضاع المجد الزائف ، ومن ثم قالوا لفرعون « أئذ موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويدركو؟ لهتك » قال مسنقتل أبناءهم ونستحي نساهم وأنا فوقهم قاهرون » .

ولا شبيح المذبحة من جديد لبني إسرائيل (ثم يكن سهلا ..)

لم يكن من السهل - فيما يبدو - على فرعون قتل موسى وهارون
غدد كانت هناك - كما قدمنا - معارضة في ذلك .

وكان هناك رأى عام يستقيم حدوث ذلك ، وخاصة بعد أن شاع وذاع . وملا الأسماع نبأ المعجزة الباهرة التي قهرت المهرة من السحرة، وحملتهم على أن يؤمنوا ويعلموا إيمانهم على رعوس الأشهاد بهذه الصورة الرائعة المؤثرة .

ويمكن مع ما ذكرنا أن نلاحظ هذه المعارضة فيما حكاها القرآن عن فرعون حين قال « ذروني اقتل موسى وليدع ربه اني أخاف أن يبديل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد » فإن كلمة ذروني تفيد أنه كان هناك من يعوقونه أو يمنعونهم . أو يشيرون عليه بغير ما كان يرى .

فإذا وضعنا في موضع الاهتمام من تقديرنا أن سواد الشعب المصرى لم يكن سعيدا بنظام الحكم الذى كان سائدا . ظهرت لنا خطوة المفامرة بقتل موسى وهارون .

فقد كانت خيرات أرضه . وثمرات جهده تنفق على الكهنة ، وتفدق على الطبقة الحاكمة الظالمة التى يعبر عنها القرآن بكلمة « آل فرعون » وبكلمة « الملائكة » وهم السادة الاشراف والقادة الحاكمون كما قدمنا .

ثم ان الانصاف يقتضيها - كما اقتضى الشعب - أن نشعر بأن

بنى اسرائيل - مع ما كانوا عليه من لؤم وخيانة وغدر - لم يكن من العدل قتل الأبرياء من أبنائهم واستحياء نسائهم .

ومن ثم كان دعاء موسى مقصودا على هذه الطبقة الحاكمة الظالمة حين قال « ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

(النظام والنظام)

هذا الى أن تسخير بنى اسرائيل لم يكن لمصلحة الشعب عامة بل كان لفرعون وللأمر من حوله خاصة .

ولعل ذلك يمكن أن يلحظ فى أسماء المدن والقصور التى سخر هؤلاء فى بنائها ، مثل مدينة « برر عمسيس » فإن معناها - كما يقال - قصر رعمسيس ، ومثل مدينة « برنوم » فإن معناها - كما يقال - أيضا - بيت الإله نوم ، وقد يكون بناؤها لخدمة أمزجة أخرى لطبقة أخرى كانت لا تقل عن طبقة البلاد أو الحاشية أو الملأ من حول فرعون ، وهى طبقة الكهنة .

وكان هذا النظام - كما قدمنا - مصدر شقاء وعناء لعامة الشعب فإن السخرة كانت شبه عامة ، وأقرب دليل على ذلك أن الأمل الذى كان يراود خيال السخرة حين قدموا على فرعون من سائر المدن والامصار هو الأجر على النصر ، فقد قدموا بين يديه هذا السؤال « أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين » فأجابهم بقوله : نعم ، ومنهمام بشرف القرب منه والزلفى لديه فقال : « وانكم اذا لمن المقربين » .

كان زوال هذا النظام اذن أملا يتطلع اليه الشعب عامة ، وبنى اسرائيل خاصة ، وكانت دعوة موسى فى صميمها دعوة تحرير عامة . مثل كل الدعوات والرسالات التى بعث بها الأنبياء وتلقوها من السماء . وقد ظهر موقف مصر صريحا من موسى وفرعون ، ولم يظهر لبنى اسرائيل كثير أو قليل .

وهنا ينتهى بنا الحديث الى نقطة هامة يمكن أن نفسر بها ماصار اليه امر فرعون وملئه ، فقد جرت سنة الله فى الكون منذ كان بأن يعصف بالطغاة المترفين بعد امهالهم واقامة الحجة عليهم ، واذا كان تفصيل ذلك يطول . فحسبنا فى ذلك أن نذكر قوله تعالى « واذا اردنا أن نهلك قرية امرنا مترفيا ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

(نهاية الطغيان)

اذا استقرأنا أحداث التاريخ . وسير الافراد والجماعات وجدنا أن نهاية الطغيان كانت دائما - ولا تزال - النكال والوبال على الطاغين الباغين ، فان ذلك قاعدة من القواعد العامة المطردة ، وسنة من سنن الله فى خلقه « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

ويلاحظ مع ذلك أن الطغيان قلما ينفك عن الغنى والسلطان ، وذلك بعض ما يفهم من قوله تعالى : « ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » وذلك ما يستفاد من وقائع الحياة وشواهد التاريخ فى الغابر والحاضر

وحسبنا من الماضى أن نذكر قارون ، فقد كان من قوم موسى ثم آتاه الله خيرا كثيرا من الكنوز فيبقى وطفى وقال « انما أوتيته على علم عندى » ثم خسف الله به وبداره الأرض « فما له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » .

وهذا الداء العياد الذى عاناه موسى من قارون هو نفسه الداء العياد الذى عاناه من آل فرعون وقال : « ربنا انك آتيت فرعون وملاه زينة وأمورا فى الحياة الدنيا . ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم » .

وهذا الداء هو الذى عاناه هود عليه السلام من قوم عاد ، فقد آتاهم الله قوة فى الخلق . وبسطة فى الرزق « فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة » ولم يذكروا « أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة » ثم كان مصيرهم كما يقول الله فيهم « فأرسلنا عليهم ريحا

صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الحزى فى الحياة الدنيا • ولعذاب
الآخرة أذى و هم لا ينصرون •

بل ان هذا الداء نفسه هو ما تعانیه وتعانیه الانسانية من طغاه
الاستعمار والصهيونية ، وستمضى سنة الله مع هؤلاء كما مضت مع
أولئك الذين كانوا يقولون « من أشد منا قوة » ولا يذكرون أن الله الذى
خلقهم هو أشد منهم قوة •

وستمضى مع المؤمنين كما يقول الله « وكان حقا علينا نصر
المؤمنين » •

(الأرضى لله)

عاد شبيح المذبحة - كما قدمنا - يقترب من بنى اسرائيل ••

وعلم موسى أن فرعون ماض فى غلوائه وكبريائه واستهتاره بأرواح
الأبرياء من صفار أبناء قومه ••

ولما علم بنو اسرائيل ما ينتظرهم من المحن والفتن تملكهم الرعب
ولم يجدوا فى أنفسهم قوة تعينهم على مجرد الصبر والاحتمال •

فقد قال لهم موسى « استمعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها
من يشاء من عباده والمآقية للمتقين » فكان جوابهم ما قدمناه مما حكاه
القرآن عنهم « أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا » وهو
جواب ينم عن عدم الايمان بالله والثقة بعونه ونصره • كما ينم عن شعورهم
بهوان القدر ، والعجز عن الصبر ، ولعلمهم كذلك لم يكونوا يؤمنون بأن
الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، وانما كانوا يؤمنون بأنها لمن يحتلها
ويستغلها من محترفى الغزو والسطو والسلب والنهب ، ومن ثم كان
جوابهم يشعر بما تنطوى عليه قلوبهم من الاحساس باليأس واليأس •

لم يكونوا - كما قدمنا - فى الصبر ولا فى التفير •

ولكن الله لم يكن غافلا عما يعمل الظالمون معهم ومع غيرهم من
سواد الشعب وعامة أهل مصر ، فقد استجاب لموسى وأخيه •• وقال
« قد أجيبك دعوتكما » •

واخذ الله آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات وتعرضت مصر
لألوان من البلاء والشقاء ، وأحس أعداء موسى بالحاجة الى دعائه ،
وقالوا « يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز
لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل » وكشف الله عنهم الرجز •
ولكنهم عادوا الى ما كانوا عليه •

(معنة عامة)

تعرضت البلاد بمد هذا الذى كان من فرعون وآله لألوان من البلاء
وضروب من الخطوب •

أصبحت تربتها بالقحط والجلب ، ونقصت ثمراتها بالجوائح الجوية
والآفات السماوية ، وغرقت أرضها بطوفان اختلف المفسرون فيه ، هل
كان من النيل أو كان من مطر غزير ، وهجمت جيوش جرارة من الجراد
تجتاح الأخضر واليابس ، وامتلا الجو بالبعوض ، وكثرت الدباب بفتح
الباء « فى الأرض » ، وهو الجراد قيل أن ثبتت أجنته أو أرجال الجراد
كما يقال « ، وكثرت الضفادع حتى نقصت على الناس حياتهم ، فكانوا
يجدونها فى فراشهم وبين ملابسهم ، ويفاجئون بها وهى تقفز الى أوانيهم
حين يأكلون وحين يشربون •

كانت النعمة عامة • وكانت بلاء من السماء لم يصب الطبقة الحاكمة
وحدها • وانما شمل الناس جميعا بما فيهم الكهنة وعامة الشعب •

وعرف الناس أو الملا من قوم فرعون أن ذلك قد يكون نتيجة دعوة
موسى حين قال « ربنا اطمس على أموالهم » فهرعوا اليه يسألونه أن
يسأل الله كشف الضر عنهم فأجابهم الى ما طلبوا ، وكشف الله عنهم
الضر • ولكنهم عادوا فنكتوا كما يقول الله « فلما كشفنا عنهم الرجز
الى أجل هم بالقوه اذا هم ينكتون •

قد يقول قائل وما ذنب الأبرياء من الشعب حتى يؤخذوا بجرم
غيرهم ؟ •

وجواب ذلك فى قول الله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الدين

ظلموا منكم خاصة » وقول النبی صلی اللہ علیہ وسلم « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشكوا أن يصمهم الله بعذاب » .

وقد كان الموقف يقتضى من الشعب أن يقوم بدور ايجابى بعد أن ظهر له حق موسى وباطل فرعون وآله . مهما يكن شعوره نحو بنى اسرائيل ولكنه لم يفعل ..

مؤامرة

لم يستطع فرعون أن يبطلش بموسى وأخيه - كما قدمنا - خوفا من ثورة عارمة قد يقوم بها الشعب ضده ، ولعله كان يعرف مقدار ما يكنه الشعب من كراهية لبني اسرائيل ، فاطمان الى أنه لن يثور عليه اذا عمد الى اساءتهم واذلالهم .

ولكن موسى مع ذلك لم يقلع عن دعوته الى دينه . ومتابعته بطلب اطلاق سراح بنى اسرائيل .

وأوحى الله اليه والى أخيه « أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة . وأقيموا الصلاة » فكانوا يجتمعون للمعبدة سرا فى منازلهم على خوف من فرعون وقومه .

وضاق فرعون ذرعا بموسى ، وعقد مع الملأ مؤتمرا للفتك به سرا ، ولكنه فوجئ برجل من أعضاء المؤتمر ينهض لمعارضة هذه الفكرة ويقول « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جأكم بالبينات من ربكم » . فان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصيبكم بعض الذى يعدكم ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، يا قوم لكم الملك اليوم طاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا .. ؟

وهال فرعون ما سمع . فأخذته العزة بالآل ، ونفخ الشسيطان فى روحه ، فقال « ما رأيكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد » .

وعاد الرجل يعقب على كلام فرعون ، ويحذر قومه من غضب الله وبطشه ، ويذكرهم بما حدث لغيرهم من الطغاة العتاة ثم أعلن أنه أبرأ . ذمته وقال : « فستذكرون ما أقول لكم وأقوض لمرى الى الله ان الله بصير بالعباد » .

وانفض المؤتمر بالفشل فى تدبير خطة لاغتيال موسى • فدبر
خطة أخرى لاقامة مظاهرة •

(المظاهرة ٠٠)

كان الغرض من هذه المظاهرة - كما قدر فرعون - ايهام العامة
والدهماء أنه أعلى من أن يطال وينال • وأن موسى أهون من أن يرتفع
الى مناضته ومعارضته •

لقد كان يملك مصر ، وتجيبى اليه ثمرات مصر ، وتجرى بين يديه
أنهار مصر ، وله غير ذلك الذهب الذى يخطف بريقه الأبصار ، والقدر
الذى تتطامن دونه الأقدار ، فكيف يجزؤ موسى على انتقاص قدره وتهوين
أمره ، وصرف الناس عن عبادته الى غيره •

واجتمع الناس من كل صوب وحذب ، وتطلعت أعينهم ترقب ظهور
الاله الزائف فى حلله وحلاه ، فلما ظهر خشعت الأصوات وأصغت
الأذان ، ونفتحت الآذان ، ثم تكلم فرعون بما حكاه القرآن « يا قوم
أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ، أم أنا
خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا لقى عليه أسورة من
ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين » •

وظفر من هذه الخطبة بما كان يريد من خفاف العقول وضعاف
الاحلام ، اذ كان ما حكاه القرآن حيث يقول « فاستخف قومه فاطاعوه
انهم كانوا قوما فاسقين » •

كان التهريج هو المنطق الذى عمد اليه فرعون للخداع واستمالة
ذوى الأطماع ، وكان الذهب الذى بدا فيه • وتحدث عنه دليله أمام
الفقراء والدهماء على سمو مقامه وعلو شأنه •

وغاب عنه أو تناسى أن موسى يدعو الى الايمان بمن بيده ملكوت
السموات والأرض • الى الايمان بمن يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك
ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء • الى الايمان بمن بيده الخير
وهو على كل شيء قدير •

آخر الدواء

لم تفلح الآيات البينات التي واجه بها موسى فرعون وآله في صرفهم عن عنادهم وغلوهم وعتوهم .

فالمصا التي صارت بقدرة الله حية تسمى نسبوا الى السحر ، وقالوا عن صاحبها « أن هذا لساحر عليم » ، على الرغم من أن أهل العلم بهذا الفن وهم مهرة السحرة أيقنوا أنها من آيات الله ، وأعلنوا عجزهم عن الاتيان بمثلها ، وآمنوا بالله رب العالمين .

وألوان البلاء التي نزلت بهم نتيجة استجابة الله لدعاء موسى عليهم لم تحملهم على الايمان به ، أو اطلاق سراح قومه معه ، بل كانوا كما يقول الله فيهم « وإن تصبهم سيئة يطروا بموسى ومن معه » .

وكشف البلاء عنهم نتيجة استجابة الله لدعاء موسى لهم لم يقابلوه بما ينبغي من العدول عن طريق الضلالة الى طريق الهداية ، ومن تحقيق ما وعدوا به موسى حين قالوا « ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون » بل ما لبثوا أن نكثوا العهد ، وأخلفوا الوعد ، وعادوا الى استكبارهم واستهتارهم ، كما يقول الله « فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكثون »

هذا الى أن موقفهم من موسى وانكارهم آياته . لم يكن استجابة لعقيدة راسخة يحرصون عليها . وايمان قوى يطمئنون اليه ، بل كان استجابة لنزعة نفسية آئمة ظالمة . تزين لهم العلو والعتو والافساد في الأرض ، كما يقول الله فيهم « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » .

لقد بدأهم موسى بالملاينة . ثم بالمخاشنة . ثم أنذر وأعذر . فلم بنجح في حملهم على الايمان . ولم يفلح في صرفهم عن الطغيان . بل انفوا أن يؤمنوا بما جاء به ، واستنكفوا أن ينزلوا عن درجة السيادة الى الدرجة التي يتساوى الناس فيها أمام رب العالمين .

ولم يبق الا آخر الدواء وهو الكي ، والا أن تحقق عليهم كلمة العذاب تطبيقا لسنة الله . وتصديقا لقوله تعالى « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله » .

(رحيل بني اسرائيل)

كان تدبير الله فوق ما كان يقدر ويدبر آل فرعون .
فقد أوحى الله الى موسى أن يجمع قومه ويرحل بهم بعيدا عن مصر .

وتناقل بنو اسرائيل نبأ التجيل بالرحيل . وتواصوا بكتمانه حتى لا يعلم به آل فرعون فيتكشف الأمر ، وتقسد الحطة التي كانوا يرون فيها آخر حيل للنجاح .

واسرعت الاسرائيليات فاستعرن من المصريات حليهن وأدوات زينتهن من الذهب والفضة يقصد سرقتها أو سلبها أو نهبها أو ما الى ذلك من الأسماء التي يمكن أن يسمى بها هذا العمل .

وهذه الرواية - اذا صحت - كانت دليلا على ما قدمناه من أن الأمر بالرحيل ظل في طي السر والكتمان حتى علم به فرعون بعد فوات الأوان .

ثم ان قوله تعالى « وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادي » يشعر بذلك ويشير اليه ، فلان الإيحاء هو الاعلام في سرعة وختفاء ، كما أن قوله تعالى في آية أخرى « فأسر بعبادي ليلا انكم متبعون » يرجع أن الحطة كانت مدبرة . وأن تنفيذها كان يكتنفه الحذر واتقاء الخطر بدليل قوله « ليلا »

وعلى هذا أكاد أجزم بعدم صحة ما قيل من أن فرعون سمح لبني اسرائيل بالرحيل ليخلص هو وقومه من العذاب الذي حل بهم نتيجة لنعاء موسى عليهم ، ثم بلغه ما فعلته الاسرائيليات مع المصريات من خداعهن واستعارة حليهن ، فجمع جنوده - وسار خلفهم ليدركهم قبل أن يفلتوا بما حملوه من الذهب والفضة وأدوات الحل والزينة .

نعم . أكاد أجزم بعدم صحة هذا . للقرائن التي ذكرتها ولأنه لو كان الأمر بالرحيل جهرا لعلمت به المصريات وأزواجهن وانكشف القناع عن خداع الاسرائيليات ، وفاقت عليهن قرصة السلب والسرقة التي تحدث عنها الرواة .

الى غير وجهه ..

أسرع موسى وقومه الى الهرب في ظلام الليل .

وساروا تخفضهم الوهاد . وترقعهم النجاد . وتحيط بهم المخاوف .

واسرع فرعون حين تناهى اليه النبا . فجمع جنوده من المدائن ،
وسار بهم اثر موسى وقومه عسى أن يلحق بهم قبل أن يفلتوا منه ، فيردهم
الى ما كانوا فيه من ذل العبودية ، أو يفتك بهم ويستأصل شافتهم من
البلاد .

وأشرقت شمس يوم على جموع يتبع جمعا ويجد في طلبه ليطبق
عليه ..

ورأى بنو اسرائيل الخطر الزاحف خلفهم وهو يقترب منهم ، فتملكهم
الذعر والخوف ، وأيقنوا أنهم هالكون ، فصاحوا بموسى : « انا لمدركون »
ولكن موسى عليه السلام كان يعرف وعد الله ، وينق بنصره فقال :
« كلا ان معي ربى سيهدين »

ثم بلغوا الساحل من البحر الأحمر على خليج السويس قبل أن
يلحق بهم فرعون وجنوده .

وأوحى الله الى موسى أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه فانفلق
وانحسرت الأمواج عن طريق معبد ممهد فيه ..

وسار موسى مع قومه في هذا الطريق تحيط به من جانبيه لجج
كالجبال ..

وأشرف فرعون على الموضع الذى عبروا منه .. واقتحم الطريق
خلفهم ليدركهم قبل أن يصلوا الى الشاطئ الشرقى ، ويردهم الى ما كانوا
فيه ..

ولكنه ما كاد يتوسط البحر حتى كان بنو اسرائيل قد خرجوا
منه ..

ثم أطبق عليه الموج . وأدركه الخرق فقال : « آمنت بالذى آمنت به
بنو اسرائيل وأنا من المسلمين »

ولكن هذا الايمان كان بعد فوات الآوان .

عاقبة المفسدين ..

لقى فرعون ومن كان معه عاقبة الكفر والجور والطغيان وهم يتعقبون موسى وقومه فى الطريق الذى انطلق عليه البحر ..

وحق عليهم أن يلقبوا المصير الذى كتبه الله على المتجبرين المستكبرين المستهترين فى كل عصر وجيل .

ولو أنهم انعطوا بما شاهدوا من قدرة الله فى انطلاق البحر بعصا موسى لفنموا السلامة وقنعوا من الفتيمة بالاياب .

ولكنهم مع هذه المعجزة الباهرة القاهرة لم يتعظوا بها ، بل تبادوا فى الاصرار على المتو والاستكبار ، وكانوا كما يقول الله « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » .

ولعلمهم تذكروا وهم فى غمرات الموج وسكرات المسوت . ذلك الصوت الناصح المشفق الذى انطلق به لسان مؤمن منهم وهم يأترون بموسى ليقتلوه « يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا » « يا قوم انى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل داب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد » .

فقد صاح فرعون حين أدركه الفرق يعلن ايمانه واذعانه ، ويقول « آمنت بالذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين » .

وقد تواضع وتخاشع حتى قرن نفسه بهؤلاء الأذلاء الذين كان يستعبدهم ويحتقرهم . ويزدريهم ، وكان على الرغم منه أن يؤمن بمن كان يكفر به ، وينعن لمن كان ينفر منهم ..

ولكن ذلك كان كما قدمنا بعد فوات الأوان ..

فلم يقبل الله منه - ولا يقبل من غيره - أن يؤمن وهو مكره على الايمان ، وانما يقبل الايمان الناشئ عن عقل ، الصادر عن اختيار وايقار .

ومن ثم كان رده على فرعون : « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ، فالיום ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » .

ولا يزال بدنه فى المتحف المصرى حتى الآن يحمل اسم « منفثاح » تصديقا لقول الله .

(بعينا عن الشعب)

استراح الشعب المصري من بنى اسرائيل ومن آل فرعون بهذا
التدبير الالهى من الله الحكيم العليم ..

فقد ذهب في جوف البحر أولئك الظالمون الآثمون . وتركوا
خلفهم ما كانوا يستغلونه ويستحلونه من ثمرات الأرض . وعرق
الكادحين ..

ولسنا تلقى القول على عواهنه حين نصفهم بذلك ، فان القرآن
الكريم يصف ما كان عليه حالهم ، وما انتهى اليه امرهم ومآلهم
فيقول : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة
كانوا فيها فاكين . كذلك وأورثناها قوما آخرين . فما بكت عليهم السماء
والأرض وما كانوا منظرين » .

وذهب أيضا أولئك الدخلاء الذين تسللوا الى مصر . وعاشوا في
ظل الغزاة الطففة من الممالقة أو الهكسسوس يجبون لهم الأموال .
ويرصدون لهم الأحوال . وينشرون الفساد في البلاد حتى كرههم
المصريون وتركوهم يقاسون سوء العذاب من فرعون وآله ورجاله .

وبقيت طائفة أخرى لو شاء الله أن يتم نعمته على مصر لأراحها
منها : وهي طبقة الكهنة ..

فقد أوهمو الناس أن فرعون سحق بنى اسرائيل ، وسجلوا ذلك
على حجر من الجرانيت عثر عليه كما يقول الشيخ عبد الوهاب النجار
نقلا عن العلامة « فلندرس بترى » .

وكان ذلك بقصد التمويه . وقلب الحقائق . لكي يستروا عن
الشعب خذلانهم وخذلان الهمم أمام موسى ، ولكي يظل الشعب على ولائه
لبيت الملك واحترامه لديانة هؤلاء .

هذه المعجزات ..

قد يكون من المناسب في هذا المقام أن نذكر شيئا عن هذه
المعجزات التي ظهرت على يد موسى عليه السلام ، وعن معجزات غيره من

الأنبياء بصفة عامة . حتى لا يقع فى نفوس القراء لبس بين عمل المخلوق
وعمل الخالق ..

ان معجزات موسى فى العصا التى انقلبت حية تسعى ، وفى اليد
التي أدخلها فى جيبه ثم أخرجها بيضاء كالثلج من غير سوء ، وفى انغلاق
البحر ليفسح له ولقومه طريق النجاة من فرعون وجنوده .

ومعجزات عيسى عليه السلام . فى إبراء الأكمه وشفاء الأبرص
وأحياء الموتى . وإخبار الناس بما يأكلون ويدخرون فى بيوتهم .

ومعجزة محمد عليه الصلاة والسلام فى هذا القرآن الذى كان ولا
يزال وسيظل معجزة الانس والجن حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ومعجزة إبراهيم عليه السلام من قبل هؤلاء حين ألقى فى النار
فصارت بردا وسلاما عليه ..

كل هذه المعجزات وغيرها من عمل الله ، ولا فضل فيها لأحد
سواه ، فليس لنبي يد فى هذه الخوارق التى يهت الناس وقهرت الخلق
وقامت أدلة صادقة على صدق من ظهرت على أيديهم فى أنهم مبلغون عن
الله سبحانه .

وعلى هذا الأساس لا يستغرب ولا يستبعد وقوعها ممن لا يعجزه
شيء فى الأرض ولا فى السماء ، فانه جل شأنه كما يقول : انما أمره اذا
أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

وعلى هذا الأساس أيضا لا مجال للمقارنة والموازنة بين معجزة
ومعجزة ، لأنها جميعها لا تفاوت بينها أمام قدرة الله جل شأنه .

فاذا قلنا ان القرآن أمجد وأخلد معجزة جاء بها نبي فلسنا نعنى
أن لمحمد عليه الصلاة والسلام أى فضل فيه ، وان كان له شرف
تلقية .

(فرعون فى الميزان)

ضمنى مع بعض كبار العلماء والمتقون مجلس ..

وجرى الحديث حول موقف فرعون من بنى اسرائيل ، ومدى ما
كان فيه من جور أو عدل ..

فكانت المفاجأة الغربية أن يسمع الجميع من شينخ كبير أن فرعون كان عظيما وكريما فى موقفه من بنى اسرائيل .. !

وذلك أن هذا الكلام يبدو متعارضا مع القرآن ، ولهذا طلبوا تفسيره أو تعديله أو تأويله بما يتفق مع كلام الله .
وانصت الجميع ينتظرون ..

وتكلم فضيلته فقال : لندع الحديث عن القرآن الآن ثم لنعد اليه بعد تحرير الكلام فى هذا المقام .. ثم سأل قائلا :

ماذا يفعل أى حاكم • عادل أو ظالم • فى قوم دخلاه غرباء وجدوا فى بلاده المرعى الحصب • والعيش الرطيب • والضيافة الكريمة على الرغم من أن أهلها يكرهونهم ، ثم وجدهم بعد ذلك • وبعد طول الإقامة فى بلاده خونة وجواسيس • ومثار فتن ودسائس وأذئابا لأعدائه وأعداء قومه • يعملون على هدم وطنه واستعباد أهله • ؟

قال قائل : أ يقتل أطفالهم ، ويستحى نساءهم ، ويسخرهم فى تمبيد الطرق وبناء المدن كما فعل فرعون .. ؟

قال وهل ذلك - مع مجافاته للحق والانسانية - يعد شيئا اذا قيس بما وقع عليهم من بختنصر وهتلر وأباطرة الرومان ، وما عانوه من المذابح التى أكلت رجالهم ونساءهم وأطفالهم فى روسيا واسبانيا • وفى كل مكان كان لهم فيه كيان ؟

ان هؤلاء كانوا وراء كل فتنة عامة ، وخلف كل محنة انسانية فى كل عصر ، ولم يكن هلاك فرعون تكريما لهم ، وانما كان انتقاما بسبب ما آل اليه أمره من الطفيان حتى انتهى به الكبر الى الكفر والاصرار على الكفر وقال : « يا أيها الملا ما علمت لكم من اله غيرى » .

(فرحة النجاة ..)

طبيعى أن يفرح بنو اسرائيل بعد أن أنجاهم الله من قبضة فرعون وأيدى رجاله .

فقد تجرعوا مرارة الذل والهوان أحقابا طويلا ، وعانوا من البؤس

وسوء العذاب خطوباً ثقالاً ، وأرأوا بأعينهم أطفالهم الذكران يؤخذون
ويذبحون أمامهم فلا ينطلق منهم صوت باعتراض ، ولا يرتفع لأحد منهم
وجه بامتعاض .

إن كل ما عاتوه وقاسوه من هؤلاء الذين طفوا وبفوا عليهم وعلى
الشعب المصرى معهم قد ولد فى نفوسهم عقداً واحقاداً لم يكن يحلها أو
يشفيها إلا أن يروا بأعينهم جلاذيتهم يلقون مصارعهم ، ويستعينون بهم .

وها هو ذا فرعون يطبق عليه الموج فيفوص فيه ، ويطفو فوقه ،
ويتلاشى صوته المتقطع المختنق الذليل بين هدير الموج . وعصف الرياح .

وها هم أولاء أعوانه الطفسة تتقاذفهم الأمواج . فتفرق جمعهم
وتمزق شملهم ، ثم تلقى بأجسامهم فوق الماء كأنهم غثاء .

فكيف لا يفرح بنو اسرائيل بنجاتهم وهلاك أعدائهم ؟ .

ولكن فرحتهم لم تكن - فيما يبدو - بما ينبغي للمؤمنين أن يتلقوا
به نعمة الله ولهذا أهمل القرآن الحديث عنها .

أما التوراة فقد ذكرت أن مريم أخت هارون أخذت الدف وخرج
وراءها جميع نساء بنى اسرائيل يدفنن ويرقصن لنجاتهم وهلاك
عدوهم .

ثم كان ما هو أفظع من ذلك وأشنع .

كان الكفر والمكر . وما عرف به بنو اسرائيل من قديم .

(طبيعة الجحود)

فلم يكذب بنو اسرائيل يمضون مع موسى بعد خروجهم من البحر
ونجاتهم من آل فرعون . حتى رأوا قوما يعبدون أصناماً لهم ، فنسوا
كل ما كانوا يذكرونه من آيات موسى ، ونجاتهم مع موسى وقالوا ما حكاة
القرآن إذ يقول الله فيه « وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم
يعكفون على أصنام لهم . قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

قال انكم قوم تجهلون ، ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون » •

والفاء فى قوله تعالى : « فأتوا » تفيد - كما هو معروف - الترتيب والتعقيب ، ومعنى ذلك أنه لم يمض وقت بعد خروجهم من البحر ونجاتهم من الهلاك حتى عادوا الى الوثنية التى القوها ، وألقوا الذل معها •

وهذا يدل على أن الايمان لم يخالط قلوبهم ، ولم يتمكن من ضمايرهم ومشاعرهم ، ولم يثمر فيهم الثمرة الطبيعية لكل شجرة طيبة ، وانما كان ايمانهم بموسى ايمانا بامامته وزعامته لا ايمانا بالله الذى خلقه وسواه •

وهو أيضا يدل على بلادة الطبع الذى لم يتأثر بكل ما شاهد من آيات ومعجزات ، ولم تفلح فى تهذيبه المحن والحادثات •

ولو أنهم كانوا ذوى حساسية دقيقة • وشعور مرهف لنفروا من كل ما يذكرهم بأضيقهم ومآسيتهم من صور الوثنية •

ولكنهم لم يذكروا ما كانوا فيه من ذل وهوان ، ولم يذكروا من أنجاهم من الذل والهوان •

انما نسوا الماضى ، ونسوا الله الذى أنجاهم من ظلام الماضى وقالوا : « يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون » ومن ممانى الجبل الطيش وضعف العقل •

مع موسى ••

انتهت قصة بنى اسرائيل مع فرعون لتبدأ بما فيها من كفر وغدر مع موسى وهارون عليهما السلام •

• ولو كان موسى مجرد زعيم مخلص عرض حياته للخطر مرتين من أجل انقاذهم ، لكان له عليهم حق السمع والطاعة والاخلاص له • وامتنال أمره • واتباع حده •

ولكنه فوق ذلك رسول من الله مؤيد بالمعجزات الباهرة والآيات
الظاهرة ، ومع ذلك لم يجد منهم الا العناء والشقاء •

فقد عادوا الى الوثنية حين وجدوا قوما يكفون على أصنام لهم وكان
ذلك قبل أن تسقط رمال البحر الرطبة من أقدامهم وقبل أن تمضى برهة
بعد نجاتهم من الهول الذى كاد يطبق عليهم • • وقد رأوا بعد ذلك من آيات
موسى • ومن آثار رحمة الله ما يؤمن به الكافر ، ويتقى به الفاجر ، فكان
منهم ما كان قبل أن يكون ، بينهم نبيهم • وقبل أن يرسل اليهم •

أحسوا الحاجة الى الماء فى صحراء سيناء وقريبا من ساحل البحر
الأحمر ، فشكوا ذلك الى موسى ، فضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا
عشرة عينا ، لكل سبط أو قبيلة منهم عين • يتدفق منها الماء البارد
الصافى •

وأحسسوا الحاجة الى الظل يقيهم حرارة الشمس ، ويحميهم من
شعاعها المحرق ، فأرسل الله عليهم الغمام يظللهم • ويرطب رمال الصحراء
تحت أقدامهم •

وأحسوا خطر الجوع والهلاك منه ، فأرسل الله الرياح تحمل لهم
« المن » وهو طعام حلو يشبه الصمغ كانوا يجدونه على أوراق بعض
الأشجار ، وتحمل اليهم « السلوى » وهى طيور كالسمانى كانت تقع على
الأرض ، وتكاد تغطيها ، فيأخذ كل منهم حاجته منها •

كان ذلك ابتلاء بالنعم بعد الابتلاء بالنقم • فكانت النعم مثل النقم
فى تقديرهم •

(وهم ، وسوء فهم)

ولم تكن هذه النعم التى ذكرنا بعضها ايثارا من الله لبنى اسرائيل
كما وهموا وزعموا • وراحوا يملئون أشداقهم بأنهم « شعب الله المختار »
وإنهم خلقوا من نطفة أخرى غير ما خلق منه الناس • من جميع
الأجناس •

وانما كانت رحمة من الله الذى وسعت رحمته البر والفاجر والمؤمن والكافر ، فخلق الجميع ، ورزق الجميع ، وأنعم على الجميع .

ذلك لأن الله جل شأنه يستوى عنده من خلق من نار ومن خلق من طين ، ومن خلق من غير هذين العنصرين ، فكل ما عده مخلوق له ، محتاج اليه ، والتراب والذهب يتفاضلان فى تقديرنا على أساس الحاجة اليهما . والمنفعة التى تتراد منهما ، ولا يتفاضلان فى تقدير الله ، لأنه لا يشعر بحاجة ، ولا يسعى لمنفعة .

وقد خلق بنو اسرائيل كما خلق جميع اجناس الناس من ماء وطين، من هذه الأرض التى يقول الله فيها : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

ولكنهم لا يفهمون شيئا على طبيعته واستقامته ، وانما يعكسون الأوضاع لتلتئم مع ما عرف عنهم من انحراف الطباع .

ومن ثم فهموا أن لهم مزية على غيرهم ، وأن الله قد أنجاهم من عدوهم ، وفجر لهم من الحجر اثنتى عشرة عينا ، وظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى ، وبعث فيهم كثيرا من الأنبياء والرسل ، لأنهم يستحقون ذلك على أساس ما يتوهمون من صفاء العنصر ونقاء الجوهر ، ولم يفهموا أن من رحمة الله بهم وبغيرهم أن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء .

الفصل • والتقى

كتب لى طالب بكلية الحقوق فى جامعة الاسكندرية يؤيد ما كتبه تحت عنوان « فرعون فى الميزان » نقلا عن عالم جليل من أن فرعون كان عظيما وكريما مع بنى اسرائيل ، وأن عقابه بالفرق لم يكن تكريما لهؤلاء الذين يقول الله فيهم « ملعونين أينما ثقفوا » وانما كان انتقاما من فرعون لتكبره وجبره وطفيانته وادعائه انه اله يستحق أن يعبد من دون الله حتى قال لقومه « ما عملت لكم من اله غيرى » .

وقد أورد الطالب الأديب شواهد من التاريخ ثم تسائل كيف يقول الله فيهم « وانى فضلتكم على العالمين » .

وأحب أن أنبه الكاتب الفاضل الى أنني تناولت هذا الموضوع من قبل ، وفسرته على ضوء ما يفهم من كلمة « فضل » لغة لا عرفاً .

وأعود فأقول : ان العرف ضيق مفهوم هذه الكلمة حتى صار يفهم منها الخير دون الشر ، أما مفهومها في اللغة التي نزل بها القرآن كما ترشدنا المراجع اللغوية فهو « الزيادة » او كما قيل بالنص « الفضل ضد النقص » .

واذا وضعنا الى جانب قوله تعالى في بني اسرائيل : « وأنى فضلتكم على العالمين » قوله تعالى في المسلمين « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وقوله لهم « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم » تعين لدينا ما ينطق به الواقع ، ويشهد به تاريخ هؤلاء ، من أن الزيادة التي تميزوا بها عن غيرهم من كثرة أنبيائهم الذين قتلوهم بغير حق . وكثرة نعم الله عليهم التي قابلوها بالكفر ، تشهد عليهم لا لهم ، وتصم تاريخهم بأنهم شر أمة أخرجت للناس .

ولعل الأديب الفاضل وغيره قد تبيينوا الفارق الكبير بين الفضل بمعناه الأصلي وهو الزيادة ، والخير بمعناه الأصلي وهو ضد الشر ، ويشمل كل ألوان البر .

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذم

الشعب المفتون

على أن الظلال الخفيفة أو الكثيفة التي كان ينشرها الغمام في جو صحراء سيناء وفوق أرضها حيث يسير هؤلاء أو يقيمون لم تكن كالظلال الوارفة التي يتقلب فيها المقيمون في منازلهم . أو القاعدون الى جوار الأشجار في الحقول أو فوق شواطئ الترع والأنهار .

ولم تكن العيون التي انفجرت بعضا موسى من الحجر يتدفق منها اللبن والحسل والحمر لهؤلاء الذين يزعمون أنهم « شعب الله المختار » وانما كان يتدفق منها الماء ككل عين يتدفق منها الماء .

وحتى هذا الطعام الحلو الذى يذكر المفسرون أنه يشبه الصمغ ، وأنه كان حلو الطعم • سهل الهضم وهو المسمى بالبن ، والطير الذى ساقه الله اليهم ليصيبوا منه ما يحتاجون اليه من اللحم • • حتى هذا لم يرضوا عنه، ولم يشكروا الله عليه ، بل قالوا « ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من يقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » •

كان ذلك رحمة من الله • ونعمة ممن يجيب المضطر اذا دعاه ، وكان على أنه خير مما ذكرنا وقدرنا - خليقا بأن يحرك فى نفوسهم وازع الشكر والشعور بأطمئنان الايمان • والحرص عليه • والاعتصام به ، ولكنهم لم يذكروا الله حق ذكره ، ولم يشكروه حق شكره ، بل ما كاد يغيب عنهم موسى أربعين يوما حتى عادوا الى عبادة العجل وأشركوا بالله •

ثم هم مع ذلك يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأن الله كريمهم بالايثار ، وأنعم عليهم بأن جعل منهم أنبياءهم ، ولا يذكرون مع هذا أنهم كانوا يقتلون أنبياءهم بغير حق ، ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين •

انهم هم الذين لعنهم أنبياءهم قبل أعدائهم ، كما يفهم من قول الله فيهم « لمن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم • ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » •

(الشعب الشرير)

ليس هذا العنوان من كلامي ، وانما هو من كلام هارون عليه السلام كما ورد فى التوراة ، فقد كان موسى وعد بنى اسرائيل بشرية تحكمهم وتنظم شئونهم بعد هلاك فرعون ونجاتهم منه •

ولما مضى بهم فى صحراء سيناء سأل الله أن يحقق وعده فأمره سبحانه أن يصعد الجبل ، ويصوم ثلاثين ليلة ، فترك موسى قومه وخلف معهم اخاه هارون نائبا عنه ، وقال له ما حكاه القرآن الكريم « اخلقنى فى قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » •

لكن بنى اسرائيل ما كادوا يحسون غيبة موسى عليه السلام حتى
فتنهم رجل منهم كان ينسب السامرى .

ويظهر أن هذا الرجل كان من الذكاء والدهاء بحيث تغلب على مراكز
فى طبعهم من حرص على المال . وتكاثر على جمعه ، فقد جمع منهم حلى
الذهب التى سرقوها نساؤهم من المصريات بدعوى الاستعارة أو سرقوها
هم من المصريين بحيلة من الحيل التى مهرؤا فيها ، ثم قدم لهم عجلا أوهمهم
أنه الههم والى موسى ، وطلب اليهم أن يعبدوه فاطاعوا وانصاعوا له ،
وصاروا كما يقول الله « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له
خوار ، ألم يرو أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين » .

(وتذكر التوراة أن موسى حين عاد . وأبصر العجل . ورأى قومه
يرقصون حوله . لأم أخاه ، فاعتذر اليه بأن هذا الشعب شرير) .

أما أن الحلى وأدوات الزينة الذهبية كانت مسروقة من مصر فذلك
ما يمكن فهمه من قولهم فيما حكاه القرآن الكريم عنهم .

« ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك التى
السامرى » .

وهكذا اتبع بنو اسرائيل سبيل المفسدين، فاطاعوا السامرى وعصوا
هارون .

خرافة قديمة

قد يقول قائل : سلمنا بما يشهد به الواقع ، وينطق به التاريخ
وتشف عنه آيات القرآن من أن هذا الشعب مفتون . ملعون . شرير ،
فمن أين آتاهم القورور واعتقدوا أنهم شعب الله المختار ؟ .

والجواب عن ذلك أن ذلك الاعتقاد خرافة قديمة دسها الاحبار فى
نفوس السبايا من بنى اسرائيل فى بابل . ليجنوا فيها تسليية وتعزية عما
كانوا يمانونه من بلاء وشقاء وذلل .

وقد نعرض لهذا الموضوع بتفصيل طويل اذا اطرد بنا الحديث الى
ذكر مآسيهم ومخازيهم فى كل ما مر به تاريخهم من أدوار وأطوار .

أما الآن فنحن بصدد التمهيد لشرح آيات متلاحقة يذكر الله بها بنى إسرائيل بما كان له عليهم من نعم ، وما كان منهم ازاءها من نكران وكفران .

وقد أوردنا هذا الجانب الطويل من مبدأ حياة بنى إسرائيل لأنه على طوله مطوى فى هذه الآيات .

على أن هذه الخرافة التى تلقاها بنو إسرائيل من أحبارهم فى أيام محنتهم بالعراق وتغنوا بها فى أناشيئهم . أصبحت عقدة نفسية وعقيدة دينية ، وبخاصة بعد أن ضخها حكمائهم وعلمائهم وأدباؤهم وبنوا عليها قصور الأمانى فى كتاب الأضاليل والأباطيل الذى يعرف باسم « التلمود » .

وقد أدت هذه الخرافة وظيفتها فى جميع هؤلاء المشردين على الفكرة الصهيونية ، وتوجيه السياسة الاستعمارية إلى تحقيق حلمهم الجميل وهو إقامة إسرائيل .

وكان ذلك حين كان العرب غير العرب والمسلمون غير المسلمين .

(مواهب • وأوهام)

ومن الأوهام الشائعة أن اليهود يمتازون عن غيرهم بمواهب عقلية خاصة ، وأن كثيرا من المخترعات الحديثة يقترن بأسماء علماء من اليهود ، كأننا صاغ الله أدمنة هؤلاء من نور . وأدمنة غيرهم من ظلام .

وقد شاعت هذه الفكرة الخاطئة أو أريد لها أن تشيع وتذيع لتخدم الحطة الصهيونية ، وتمكن لها فى أذهان المخدوعين بها والماجورين لها من المستعمرين وأذناب المستعمرين .

وهذه الفكرة الشائعة تذكرنا بفكرة أخرى شاعت وذاعت فى جو البلاد التى نكبت بالاستعمار الغربى ، فقد قيل كذلك - ولا يزال يقال - أن العقل الآرى يمتاز عن العقل السامى ، بخصائص العمق فى البحث . والاستقصاء والنفوذ إلى ما وراء القشور من اللبأب ، وأن العقل السامى سطحي البحث . ضحل القرار . يقف عند ظواهر الأشياء ولا يتجاوزها إلى أعماقها ودقائقها وحقائقها .

وهذه النظرية - ان صحت - تهدم ما يقال عن مواهب اليهود لأنهم ساميون - وان صح أن عقلية اليهود كما يقال - انهدمت هذه النظرية التي تشيد بالعقلية الآرية .

والصحيح ان كلتا الفكرتين مجرد زعم كاذب ووهم خاطيء وان الظروف الاجتماعية والمادية والتوجيه العلمى . والشعور بالحاجة وما الى ذلك من العوامل التي لا تحصى هي التي تساعد على ايقاظ المواهب أو تعمل على اخمادها .

وقد عاش اليهود آلاف السنين قبل عصر النهضة الأوروبية غارقين في ظلام الجهل والذل دون أن نرى لهم أثرا أو خطرا ، وعاش الأوروبيون كذلك آلاف السنين ذئابا جائعة تحترف الصيد أو السطو دون أن نرى لهم أثرا أو خطرا .

انها أوهام تعرض فى صور الحقائق العلمية لتزوى وظيفتها فى خدمة الاستعمار والصهيونية .

(عجل بنى اسرائيل)

قيل كلام كثير حول حقيقة العجل الذى عبده بنو اسرائيل فى أثناء غياب موسى عليه السلام .

فمن قائل : انه كان تمثالا أجوف من ذهب صاغة السامرى من الحلى ، وصنعه بحيث اذا استدبر الريح دخلت جوفه وخرجت من فمه بصوت جهير يشبه خوار البقر .

ومن قائل : ان هذا الرجل المحتال خدع بنى اسرائيل وأخذ منهم الحلى ، ثم رأى عجلا على هيئة العجول التى راوها تعبد ، فاشتراه وقدمه لهم على أنه اله ، فقال « هذا الهكم واله موسى » .

ومن قائل : غير هذين الرأيين ، ولا يتسع المقام لعرض كل ما قيل .

ولكن المتفق عليه فى الكتب السماوية وغيرها أنهم عبدوا عجلا أيا كان هذا العجل ، وأن السامرى صرفهم عن عبادة الله . وفتنهم بعبادة صنم أبكم

لا يسمع ولا يفهم ، وأنهم لم يابھوا لهارون وهو يصيح فيهم « يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمرى » بل كان ردهم عليه ان قالوا : « لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى » .

هذا مع أن هارون أخا موسى نبي ورسول من الله مع موسى ونائب وخليفة لموسى ، ولكنهم بنو اسرائيل دائماً . مع الفاسد المفسد ولو كان « السامرى » وضد الصالح المصلح ولو كان هارون .

ويظهر أن أكثرهم ارتكسوا فى حمة هذه الوثنية من جديد ، وأنهم لم يجدو معارضة قوية من غير هارون ، فان ذلك يفهم من اعتذار هارون لموسى . وقوله فى ذلك « انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى » فقد كان هذا رده على أخيه حين قال له : « يا هارون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمرى » ؟

••• شريعة التوزاة •••

ذهب موسى الى لقاء الله ليتلقى منه الكتاب الذى وعد به قومه .
واتجه الى الجبل ليكنث فيه ثلاثين ليلة كما أمره الله .

ويذكر المفسرون أنه قضى هذه المدة صائماً ، ثم وجد رائحة فمه .
قد تغيرت . فاستاك اولاك فى فمه شيئاً من التبات ، فقال له ربه لم أفطرت ؟ فقال : كرهت أن أكلبك ألا وفى طيب الرائحة فقال له الله .
أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندى أطيب من ريح المسك ارجع . فصم عشرة أيام . ثم اثنتى . ففعل ، وأتم مدة الصيام أربعين يوماً .

ذلك ما يذكره المفسرون فى شرح قوله تعالى « واعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتمناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة » .

وبعد انتهاء هذه المدة سمع موسى ربه يكلمه فقال : « رب أرنى انظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى » -

ثم تجلى جلال الله للجبل ففاص فى الأرض ، وارتطمت أجزاءه بعضها

بعض ، فتفتت ، وسمع لذلك صوت رهيب لم يتحمله موسى فوق مغطيه عليه ، ثم أفاق وأدار عينيه فيما حواليه ورفعهما وقال يناجى الله ، وينزله عن أن تدركه الأبصار » سبحانهك تبت اليك وأنا أول المؤمنين » .

وسمع الله توبته وتسيبته . فقال « يا موسى انى اصطيفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » .

وكانت الرسالات هى الألواح أو أسفار التوراة . وفيها كما جاء فى القرآن حيث يقول الله تعالى « وكتبنا له فى الألواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ » .

ولكنه ما كاد يمود بها حتى وجد قومه قد عادوا الى ضلالهم القديم ، فألقاهما على الأرض ، وأخذ بشعر رأس أخيه يجره اليه « قال يا هارون ما منعك اذ رايتهم ضلوا ألا تتبعن » .

فى ثورة النضب ..

ثار موسى ثورة عنيفة عندما رأى كل ما بناء قد انهار فى غيبته عن قومه ...

لقد عادوا الى عبادة العجل ، وهم لم يتحرروا من ظلم فرعون الا عن طريق الايمان بالله ، ولم ينجوا من الهلاك الا برعاية الله ولم يجدوا الله ينبثق من الصخر فى القفر الا برحمة الله ، ولم يجدوا الطعام وظل القمام الا من الله .. فكيف ينسون كل ذلك وينسون من أنجاهم من المهالك ؟

واسرع الى أخيه فجذبه من شعر لحيته ورأسه وأخذ يجره اليه ويقول له « يا هارون ما منعك اذ رايتهم ضلوا ألا تتبعن أفعمصيت أمرى ؟

وأخذ هارون يعتذر اليه . ويقول ما حكاه القرآن عنه « يابن أم لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى » « يابن أم ان القوم استضعفونى وكانوا يقتلوننى . فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين » .

وترك موسى اخاه هارون . وتوجه الى قومه يخاطبهم ويمعاتهم ،
« يا قوم . ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا . أفتال عليكم العهد ام أردتم أن
يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي » ؟ .

وأجابوه بما حكاه القرآن عنهم « ما أخلفنا موعدا بملكننا ولكننا حملنا
أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك القى السامري » .

فتوجه الى السامر وقال « فما خطبك يا سامري ؟ » قال بصرت
بما لم يبصروا به . فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت
لى نفسى » .

ثم كانت توبة بنى اسرائيل أن يقتلوا أنفسهم بأنفسهم ، وعقاب ،
السامري أن يمشى شريدا طريدا لا يمسه أحد . ولا يمس أحدا ، كما
يفهم من قوله « اذهب فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس وان لك موعدا
لن تخلقه . وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى
اليم نسفا » .

(محنة جديفة ..)

كانت جريمة منكرة أن يعود بنو اسرائيل الى الوثنية مرة أخرى
وبخاصة بعد أن من الله عليهم بالمان والسلوى ، وفجر لهم من الحجر اثنتى
عشرة عينا ، وظلل عليهم الغمام ، وأراهم من آياته على يد موسى ما يشبههم
على الايمان ، ويقيمهم على الحق .

وكان عقاب هذه الجريمة محنة أخرى أشد وبالا ونكالا من المحن
التي تعرضوا لها .

لقد كان فرعون يقتل أبناءهم . ويستحيى نساءهم ، وها هم أولاد
يقتلون أنفسهم بأنفسهم ، ويخربون بيوتهم بأيديهم .

وكان عمل فرعون معهم بلاه من الله كما يفهم من قوله تعالى « واذ
نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون
نساءكم وفى ذلكم بلاه من ربك عظيم » ثم كان عمل موسى أن يسلط سيوف
بعضهم على رقاب بعض بأمر من الله ويقول لهم « يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم

ياتخاذكم المعجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم » .

وتذكر التوراة ان موسى امرهم ان يضعوا سيوفهم على افخاذهم وان يسيروا بالرحلة التي كانوا يقيمون فيها من باب الى باب ، ويقتل كل رجل اخاه ، وكل صاحب صاحبه . وكل قريب قريبه . ففعلوا وقتل في ذلك اليوم ثلاثة آلاف رجل .

وهكذا نرى ان ما حل ببني اسرائيل في ظل فرعون كان من جنس ما حل بهم في ظل موسى .

فقد كان ذلك بلاء من الله ، وكان هذا بأمر من الله وكلاهما محنة تنزل بالمصاة ، وتذكرنا بقول الله جل شأنه « وهو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيئا ويذيق بعضكم بأس بعض » .

الى التوراة ..

عاد موسى الى الأسفار يجمعها بعد أن ألقاها على الأرض في ثورة الغضب وحطم بعض الألواح كما يذكر بعض الرواة وتصرح التوراة .

وهذه الأسفار هي الألواح التي تلقاها موسى عن ربه ، وتلقى فيها شريعته الى بني اسرائيل وقد أشار القرآن الى ما جاء فيها إشارة مجملة فقال « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء » ثم ذكر أن الله أمر موسى أن يأخذها بقوة . وقال له « وأمر قومك ياخذوا بأحسنها » بمعنى أن يفعلوا ما يكون أدنى الى الخير وأدعى الى رضا الله ، فإذا رأوا فيها خصلتين أو طريقتين تقربانهم الى رضوان ربهم ، وكانت أحدهما أعظم ثوابا ، وأحسن مآبا ، وأكثر خيرا أخذوا انفسهم بها ، وتركوا الحسن الى الأحسن . والفاضل الى الأفضل .

وقد اختلف المفسرون في عدد هذه الألواح ، فمن قائل انها عشرة ، ومن قال انها اثنان ، ومن قائل غير هذين خيما بين العشرة والاثنين .

واختلفوا كذلك في حقيقتها اكانت من خشب ام من حجر ام من زبرجد . ام من ياقوت ، ولا شيء يعنيها من هذا الخلاف ، ولا ثمرة له . ولا فائدة فيه .

انما يعنينا ان نتابع سيرة هؤلاء مع موسى . وسيرة موسى معهم لنرى كيف كان مسلكهم في جميع اطوار حياتهم يتسم بطابع الصغار والذل والقدر والمكر والكفر بما يستحق الشكر .

وقد انتهت ثورة موسى بما رأى من دماء قومه ، ثم اتجه الى الله يناجيه . ويدعو لنفسه ولأخيه « رب اغفرلى ولأخى وادخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين » .

ثم سمح نداء الله يملأ قلبه وأذنيه بغير الفاظ وحروف « ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين » .

ثم جمع موسى التوارة واختار من قومه سبعين رجلا للقاء الله .

(توبة .. ثم كفر)

كان السبعون رجلا الذين اختارهم موسى ليذهبوا معه الى الجبل حيث اعتاد أن يناجى الله . من خيرة بنى اسرائيل كما يفهم من قوله تعالى ، « واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا » فان التعبير بكلمة « واختار » يشعر بأنهم خير بنى اسرائيل فى نظره وتقديره .

وفى هذا التعبير ما يكاد يومى بأن هؤلاء هم دون غيرهم قومه ، كان من عداهم — وهم كثير — لا يمدون قوما له بسبب ما انحدروا اليه من اثم وظلم ، وغدر وكفر ، وكان قوم موسى لا يتجاوزون هذا العدد القليل الضئيل .

ومع هذا كان هؤلاء كثيرهم من عامة بنى اسرائيل !

لقد ذهبوا مع موسى الى جبل الطور أو « حوريب » ليقدموا معه التوبة الى الله . والندم على ما اقترفه قومهم من الاثم بعبادة العجل .

ثم سمعوا كلام الله لموسى دون أن يروا جسما أو يعرفوا حقيقة الكلام الذى يسمعون ، فعادوا الى التمرد والكفر والعصيان وقالوا « يا موسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة » .

ولكنهم لم يكادوا يجاهرون باعلان هذا التهديد بالعصيان حتى اخذتهم صاعقة من السماء فوقوا على الأرض ، ينظر بعضهم الى بعض ، وغشبيهم من الاغماء ما غشبيهم ، ولجأ موسى الى الله يناجيه بهذا الذى يحكيه القرآن « رب لو شئت اهلكتهم من قبل واياى . اهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ، انت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين » .

واستجاب الله دعاء موسى ونداه فقال « عذابى اصيب به من اشاء . ورحمتى وسعت كل شئ » .

ثم بعثهم . واعاد الحياة اليهم . لعلهم يشكرون . ولا ندرى اكان منهم بعد هذا شكر أم كفر .

•• محمد فى التوراة ••

ويمضى القرآن فى عرض هذا الجانب من قصة موسى امام الله ومع السبعين رجلا الذين اختارهم من قومه ، فيذكر أن الله قال لهم بعد العفو عنهم والمغفرة لهم ، وبعد قوله « عذابى اصيب به من اشاء ورحمتى وسعت كل شئ » فساكنيها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » .

ومعنى هذا أن موسى تلقى البشارة بخاتم الانبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم .

وأن هذا النبى يجده اليهود والنصارى مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ••

وإن رسالته تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإباحة الطيبات لهم ، وتحريم الحيات عليهم ، وتحريرهم من الأغلال والأثقال .
التي يجدون في احتمالها العناء والأذلال ..

وإن الذين سيتبعونه من هؤلاء الذين يجدونه مكتوباً عندهم ومن غير هؤلاء • فيؤمنون به ، ويؤازرونه ، ويناصرونه ، ويتبعون القرآن الذي أنزل عليه ، سيكونون دون غيرهم أهل الفوز والفلاح ..

كان هذا حقيقة مخفوة في الاسفار • مسطورة في التوراة • بل كان تشييداً يترنم به بنو اسرائيل بعد أن أغار عليهم طيطس الروماني وخرّب بلادهم ، وهدم الهيكل الذي كانوا يفاخرون به وبما فيه من ذهب وفضة •

تم كانت أغلال الذل والآلام الثقيل تنسج حولهم ليلا دامساً من الهوم والأحزان • فانتقلوا من فلسطين • وأقاموا في جهات من الحجاز مثل تيماء • وادي القرى • وفدك • وخيبر • وحول يثرب • لا غازين فاتحين ولكن لاجئين هاربين يلتمسون النور الذي وعدوا به • والفجر الذي طال بهم انتظاره « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

كيف رفضوا التوراة ..

لا يعلم الا الله مدى المفاجعة المفاجئة التي أحسها موسى عليه السلام عندما رأى السبعين رجلاً الذين اختارهم من قومه على ظن أنهم خير بني اسرائيل قد تمردوا عليه ، وقالوا : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » •

وانما نعلم أنه استبان له أن هؤلاء مثل غيرهم سفهاء ، بدليل قوله في مناجاة ربه « رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي • أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » •

وكيف لا يكون هؤلاء سفهاء ، وقد جاؤا مع نبيهم تائبين عن أنفسهم وعن قومهم المذنبين ، فإذا بهم يضيفون الى سلسلة المآثم والجرائم اثمًا آخر وجريمة أخرى ، ويقولون في قحة واستهتار ، « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » •

وقد ذكر بعض المفسرين فى تفسير قول الله حكاية عن موسى :
« رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى » انه تمنى لو كان هلاكه وهلاك
قومه قد وقع فى محنة من المحن الكثيرة التى نجاهم الله منها فى الماضى
فقد ضاق بهم وبكثرة أخطائهم وخطاياهم حتى ضاق بحياته وحياتهم .

ولكننى مع غير هؤلاء أرى أن هذا الكلام أراد به موسى عليه السلام
الاعتذار عن قومه . والاستغفار لهم ، ولم اعتمد فى هذا على ما عرفنا عن
عامه بنى اسرائيل من حرص على الحياة كما يقول الله « ولتجدنهم أحرص
الناس على حياة » بل على قول موسى فيما يحكيه القرآن عنه « أنهلكننا بما
فعل السفهاء منا » ، فانه يفهم منه أنه عليه السلام كان يلتمس من الله ألا
ياخذ الأبرياء بظلم السفهاء ..

وقد عاد موسى مع هؤلاء الذين خاب فيهم ظنه ليسوس قومه بشريعة
التوراة ، وفيها كما يقول القرآن « هدى ونور » ولكنهم مع هذا رفضوها
وعارضوه فيها ، وآثروا عليها ما كانوا فيه من ضلال وظلام ، وتبين أنهم
فى حاجة الى نازلة أخرى تطل عليهم من السماء ، أو تخرج اليهم من
الأرض ، أو تحيط بهم من الأرض والسماء .

كيف قبلوا التوراة ..

وكان ما شاء الله أن يكون ، فانه سبحانه « انما أمره اذا أراد شيئا
أن يقول له كن فيكون » .

كان أن نتق الجبل فخلعه ورفع فوقهم ، حتى صار كأنه سقيفة
تظللهم ، أو ظلة منشورة فوق رؤوسهم ، فدارت أعينهم كالذى يفتشى عليه
من الموت ، وتملكهم الهلع والفرع ، وأيقنوا أن الجبل سيقع عليهم .
ويطحن عظامهم ويحاجهم ..

وهنا .. قبلوا أن يأخذوا أنفسهم بشريعة التوراة بعد أن كانوا
يرفضونها ويمارضون موسى فيها ، ثم كان منهم بعد ذلك ما كان منهم
قبل ذلك .. !

امتدت أيديهم أو أبدى أحبارهم الى التوراة فحرفوها وزيفوها. وإلى
الأنبياء فقتلوهم وعذبوه ، وكانوا كما يقول الله فيهم ، « وترقى كثيرا

منهم يسارعون في الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبس ما كانوا يصنعون»
 وكما يقول في مواقفهم مع أنبيائهم : « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى
 أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون » وكما يقول في علمائهم وأحبارهم
 « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا
 به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » •

هكذا كان بنو اسرائيل منذ كانوا حتى اليوم •

وقد ذكر القرآن هذه الحادثة وذكر بها حيث يقول الله فيه : « واذ
 تنقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم • خذوا ما آتيناكم
 بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » •

والتعبير بقوله « لعلكم » يشعر ببعدهم عن التقوى • حتى مع العمل
 بما في التوراة قبل أن تمتد إليها يد التحريف والتزييف •

أهل موسى

كان أهل موسى الذي منى به قومه • وأخذ يسمى إلى تحقيقه أن
 يجدهم أمة لها كيان • ونظام • ومكان ••

ويظهر أن فرعون كان يلمح ذلك ويخشى تحقيقه في أرض مصر كما
 يشعر بذلك قوله « ان هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم
 فماذا تأمرون » وقوله للذين آمنوا برب هارون وموسى « ان هذا لمكر
 مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون » وقول موسى
 لقومه « استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده
 والمآب للمتقين » وقول فرعون لموسى وأخيه : « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا
 عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض » •

ولكن هذا الأمل لم يكن وليد حلم في نوم ، بل كان عقيسة يؤمن
 بها ويسمى إلى تحقيقها ، فاذا تبخر في مصر فلا بأس من أن يطل عليه
 في غيرها ••

وكان إمامه وإمام قومه فلسطين ••

صحيح أنها لم تكن لهم دار قرار ، فان اسرائيل بن اسحق ، واسحق

ابن ابراهيم . و ابراهيم كان مهاجرا من العراق ، و بنو اسرائيل لم يقيموا
فى فلسطين مدة طويلة ، و انما هاجروا منها الى مصر . ليمشوا فيها
مع اخيهم يوسف . فى ظل العمالة او الهكسوس كما قدمنا .

وقد خرجوا من مصر فرارا من آل فرعون ، و أصبح عددهم كثيرا
يمكن أن يقوم عليه مجتمع له كيان . و نظام و مكان .

وقد جاءت التوراة بالنظام فأين يجدون المكان ؟

ان اقرب مكان تطمح اليه انظارهم بعد مصر هو فلسطين ولكن كيف
يدخلونها وهم مع كثرتهم جبناء « تحسبهم جميعا و قلوبهم شتى » .

الى الأرض المقدسة

كان بنو اسرائيل على كثرتهم ينتمون الى اثنتى عشرة قبيلة ، و كانت
كل قبيلة تنتمى الى واحد من أبناء يعقوب عليه السلام .

و كان موسى يطمح فى اقامة مجتمع من هؤلاء . أو من هؤلاء وغيرهم
يحكمه نبى أو ملك منهم على أساس العمل بشريعة التوراة .

ولم يكن لبنى اسرائيل وطن يتشوقون اليه ، أو يشعرون نحوه
بحنين يجمعهم عليه ، بل كان كل ما بقى فى أنفسهم عن فلسطين بقايا
ذكريات لاتعدو أيامهم مع اخيهم يوسف ، و مولد جدهم اسحق . و من وراء
اسحق يعقوب الملقب باسرائيل .

بل ان يعقوب أنفق الجانب الأخير من حياته فى مصر و مات فيها ،
بعد أن رحل اليها مع أبنائه الأحد عشر ، فلم تكن مدة اقامته واقامة أبيه
اسحق فى الأرض المقدسة بحيث تسوغ لأبنائه أن يتطلعوا الى امتلاكها
و الحكم فيها ، ولم يكن لأبيهم الأعلى أو آبائهم أو أى فرد فيهم أى حق فى
فلسطين . الا أن يكون حق فرد أى فرد أو افراد فى مجتمع يحكمه نظام
عام .

لكن الأرض كما قال موسى لقومه فى مصر « الله يورثها من يشاء من
عباده » و هى كما وجدها فى التوراة . و كما وجدها داود من بعده فى
الزبور . و كما وجدها المسلمون من بعد كل هؤلاء فى القرآن للصالحين من
عباد الله . مصداق قوله تعالى « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن

الأرض يرثها عبادى الصالحون » وقوله سبحانه : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » .

لهذا فهم موسى عليه السلام أن قومه أصبحوا صالحين ، وإن صلاحهم يؤهلهم لامتلاك فلسطين ، فنادى فيهم : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا تردوا على أديباركم فتنقلبوا خاسرين » .

ولكنه كان يصيح فى واد • وينفخ فى رماد •

لقد كان هذا الجيل الذليل من بنى اسرائيل لا يصلح لقتال أو استقلال •

(الجيل الذليل)

نعم كان موسى من قومه فى جيل ذليل • لا يصلح لقتال أو استقلال فقد بحث من كل قبيلة واحدا الى فلسطين • ليتحسسوا الأرض ويتعرفوا حال أهلها ، فذهبوا - وكانوا اثنى عشر رجلا - ثم عادوا ليخبروا قومهم بما راعهم ورؤعهم من جساماة أجسام أهل هذه البلاد • وشدة بأسهم وخبرتهم فى الحرب ، وقدرتهم على الكر والفر • والنزال والقتال •

ولم يكذب بنو اسرائيل يسمعون ما قصه عليهم هؤلاء الرواد حتى انخلعت قلوبهم ، وتمثل لهم شبح الموت فى كل خطوة تقر بهم من فلسطين وقالوا : « يا موسى ان فيها قوما جبارين ، واننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها • فان يخرجوا منها فاننا داخلون » •

وقام رجلان من هؤلاء الرواد الجواسيس • أو من الذين أنعم الله عليهم بالايامن من غير بنى اسرائيل ينصحان موسى وقومه بأن يدخلوا على أعدائهم باب مدينتهم « أريحا » فيباغتوهم فيها ، ويحجزوهم داخلها ، وبذلك لا يستطيعون الفر والكر والتصاول كما يحدث فى الصحراء أو الأرض الفضاء ، ولكن هذه النصيحة لم تجد أذنا واعية • أو قلبا عظيما •

فقد طارت نفوسهم خوفا من بطش أعدائهم بهم • وقالوا : « يا موسى اننا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلانا ها هنا قاعدون » •

وشعر موسى عليه السلام باليأس الحزين القاتم • فاتجه الى الله .
يتأجبه ويناديه « رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم
الفاسقين » •

... ثم سمع من جانب الله الرد الحاسم : « قال فانها محرمة عليهم أربعين
سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » •
وكان الفاسقون هم هؤلاء الذين ابتلاهم الله بالنقم فلم يزدجروا ،
وبالنعم فلم يمتثلوا ••

(التائبون فى الأرض ••)

وكان على بنى اسرائيل أن يتيهوا فى الأرض أربعين سنة قبل أن
يدخلوا الأرض المقدسة ••

ويذكر ابن خلدون فى مقدمته « أنهم تاهوا فى قفر من الأرض ما بين
الشام ومصر أربعين سنة ، لم ياءوا فيها الى العمران ، ولا نزلوا مصر ،
ولا خالطوا بترا » ثم يذكر أن الحكمة فى ذلك هى « افناء أبناء الجيل
الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة • وانشاء جيل آخر عزيز
لا يعرف الأحكام والقهر ، ولا يسام الذل والهوان » •

كان لابد إذن من جيل آخر غير هذا الجيل الذليل من بنى اسرائيل •

وكان لابد أن ينشأ هذا الجيل فى جو حر ، حتى ينشأ على حب
الحرية ، وفى مهمه قفر حتى يعتاد الحشونة والشظف والصبر على العناء
والمشقات •

وكان لابد مع هذا أو قبل هذا أن يتمكن فى قلوبهم الايمان بالله •
والاعتصام بحبله • والاعتزاز بدينه فى هذا الجو النصحو الذى كتب عليهم
أن يعيشوا فيه ••

ومن الطريف هنا أن نذكر ما ذكره فضيلة المرحوم الشيخ
عبد الوهاب النجار فى حضارة العلم وحضارة الأخلاق ، فقد قال فى كتابه
قصص الأنبياء : « والعلماء يقولون ان حضارة العلم خمس عشرة سنة ،
فاذا ابتدأت أمة تتعلم فانها تجنى ثمرة العلم بعد خمس عشرة سنة ، أما

حضانة الأخلاق فمدتها أربعون سنة ، فإذا أخذت الأمة تستمسك بالأخلاق فانها لا تجنى الثمرة الا بعد أربعين سنة » •

لذلك أراد الله أن يبقى بني اسرائيل في البرية أربعين سنة حتى ينفى الجيل الذي نشأ في الذل والاستعياذ ، وينشأ جيل ألف الحرية ، ولم تذله العبودية » •

وعندئذ أن ابن خلدون والمرحوم الشيخ النجار نسيا مع ذلك اعتبارات وراثية عرفت عن بني اسرائيل • في كل زمن وكل جيل •

(وفاة موسى وهارون)

وفي هذه الفترة الطويلة التي أمضاها بنو اسرائيل تائهون في الأرض توفي هارون وموسى ••

وكانت وفاة هارون قبل موسى • فلم يشأ بنو اسرائيل أن تمر دون ضجة وضوضاء ••

فقد اتهموا أخاه بقتله ، وشغفوا عليه ، ولم يذكروا أنه نبي ورسول من الله ، وأنه كان على يديه ما راوا من آيات بينات ، وأنه كان الرحمة المرسله من الله اليهم ••

لم يذكروا ذلك • ولا شيئا من ذلك ، واتهموه بالاجرام • وقتل نفس زكية حرم الله قتلها ••

ويذكر المفسرون أنهم لم يرتدعوا عن هذا القى والضلال حتى أراهم الله هارون على سرير بين السماء والأرض ، فلم يروا فيه أثرا للقتل ••

وكانت وفاة هارون في جبل يسمى « هور » توجه اليه موسى وأخوه بأمر من الله • فدفنه موسى ، وعاد الى قومه حزينا عليه ••

أما وفاة موسى فكانت في جبل يسمى « نبو » أمره الله أن يذهب اليه ليقف عليه ، ويمد بصره بعيدا ليرى الأرض المقدسة التي كان يمني بنفسه وقومه بدخولها • والاستقرار فيها ••

ولقي موسى أجله وعيناه تمتدان الى بعيد • لترى من خلال التلال

الجائمة والجبال القائمة الارض التي طاف حولها خياله وتعلقت بهـ
آماله .

واستراح موسى عليه السلام من عناء قومه . ومن أحداث قومه . .
ومن شر قومه .

استراح من بنى اسرائيل لينعم فى جوار الله مع الذين انعم عليهم
« غير المقضوب عليهم ولا الضالين » .

سلام على موسى وهارون . .

انتهت حياة هارون بما قنتهى اليه حياة كل حى ، واطمان فى مرقده
ومثواه الأخير فى جبل هور .

ثم لحق به أخوه موسى فوافاه الاجل فى جبل «نبو» وهو يستشرف
الأرض المقدسة ، ويتشوف اليها ، ويلقى عليها نظرات تفيض حسرات . .
وبقى بنو اسرائيل حيث تركهم موسى وأخوه تائبين فى قفار الأرض
يضربون فى صحرائها ، ويتقلبون فى أنحائها ، وينتظرون الموعد الذى
كتب الله لهم أن يدخلوا فيه أرض الميعاد . .

وقبل أن نمضى مع هؤلاء فى قصة حياتهم - وهى تمثل قصة الشر
فى العالم منذ وجدوا بعد ابليس وجنوده حتى الآن - يحسن بنا أن نذكر
لموسى وأخيه - عليهما السلام - جهادهما فى اصلاح قومهما بما ينبغى
لهما من تعظيم ، وما ينبغى لهما من تكريم .

فقد لقيا من بنى اسرائيل ما تنوء بحمله الجبال ، فلم يضمف
إيمانهما برسالتهما ، ولم يفقد الأمل فى تحقيق غايتهما . حتى لقيا الله
مطمئنين الى رضاه . .

وإى تكريم أمجد وأخلد لهما من تكريم القرآن حيث يقول فيهما
« واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ، وناديناه
من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ، وهبنا له من رحمتنا أخاه هارون
نبيا » وحيث يقول : « ولقد مننا على موسى وهارون ونجيناهما وقومهما
من الكرب العظيم » ثم يقول « وهديناهما الصراط المستقيم » وتركنا
عليهما فى الآخرين ، سلام على موسى وهارون ، أنا كذلك نجزي
الحسين .

وهكذا يرفع القرآن هذين الرسولين من بنى اسرائيل الى الدرجة التي يستحقانها ثم يطلب الى المؤمنين به أن يرتفعوا الى مستوى دينهم القديم ، فلا يتأثروا بما يعرفون عن بنى اسرائيل في حكمهم على موسى عليه السلام فيقول « يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها » .

على الشاطئ ..

صديقي القاري ..

كان على أن أقف عند هذا الحد الذي انتهينا اليه من حياة بنى اسرائيل ثم أعود الى ما وقفنا عنده من آيات لنستأنف السير في عرض معاني القرآن على النحو الذي توخيناه كلمة ، كلمة ، فآية ، آية فسورة ، سورة .

ولكن كثيرا من أصدقائي وقرائي الذين يجتمعون بقولهم وقلوبهم معي ومعك في ظل هذا العنوان . رأوا أن أمضى في متابعة حياة بنى اسرائيل بمعد موسى في اجمال عام ، ثم أعود الى تفصيل شرح الآيات التي أجملت حياتهم في بضع عشرة آية ، وأمضى في التفسير على النحو الذي توخيناه كلمة كلمة .. ثم آية آية ، ثم سورة سورة .

وأبادر فأصارعك بأن التفسير بالمعنى الذي يفهم من كلمة تفسير مطلب صعب المنال . اذا لم يكن من المحال ، فإن الآية الواحدة من القرآن تكشف للناظر اليها . والمتأمل فيها ما يكشف المجهر من ملايين الدقائق والحقائق التي تجتمع في ذرة من جسم . أو نقطة من دم أو قطرة من ماء .

بل ان الآية الواحدة منه لو قدر لأنسان أن يكشف جانباً من معانيها أو يستشف بعض الأسرار فيها ، لهاله أن يجد نفسه على شاطئ محيط واسع . يطير به خياله بين جمال آفاقه ، وجلال أعماقه ويسبح به فكره فيما بينها من ماء وهواء وكائنات لا تحصى ولا تستقصى .

فكيف يمكن لمعبر أو مفسر أو مصور أن ينقل ذلك أو شيئاً من ذلك في كتاب أو ألف كتاب ، ثم يفهم أو يتوهم أنه ترجم الى اللغة العربية أو الى غيرها من اللغات الحية معاني القرآن .

ان مجرد اختلاف القراء فى لهجات القرآن حمل عثماني بن عفان
رضى الله عنه على أن يحرق كل المصاحف ويكتب المصحف الامام باللغة
واللهجات التى كان يقرأ بها على عهد رسول الله ويسمع منه ، ولم يحل
ذلك دون أن تشرق شمس الاسلام فى كل بلد يحل به مسلم ، لأنه كان
بضوئه المتألق • وحقه الثابت ورحمته العامة يعيش فى نفوس هؤلاء
ويضىء فى روسهم فكانوا به أسوة حسنة وقدوة طيبة • • فليذكر القراء
ذلك وليذكروا أننى اكتب من معانى القرآن لا معانى القرآن •

قصص فى قصة ••

انتهت حياة موسى على النحو الذى قدمناه ••

ولم نعرض لما اتصل بحياته من قصص فردية أخرى ، لأن ذلك لا
يتصل بغرضنا من هذا العرض السريع •

فان غرضنا أن تكشف للقراء عن مسلك هؤلاء من حيث هم جماعة
لا من حيث هم أفراد •

ولهذا أرجأنا الحديث عن قصة البقرة التى أمرهم بذبحها وقصة
فارون معه • وقصة اتهامه بعبث جنسى • و • الى آخر ما هنالك من
قصص كثيرة فاضت بها كتب السيرة •

ولو ذكرنا ما ذكرته التوراة عما كان من هؤلاء وآبائهم ، وما نسبته
الى بعض الأنبياء منهم من حوادث فردية لطال بنا الكلام • وخرجنا عن
الصراف المستقيم الذى توخينا وسألنا الله أن يهدينا اليه ••

ولكننا نكتب فى ظل القرآن ، ونسترشد به فى كل خطوة نخطوها
ولهذا لم نعرض بكثير أو قليل لما قيل عن قصة يعقوب • وهو أبو هؤلاء
مع أخيه عيسى وقصة أبناء يعقوب بعضهم مع بعض ومع يوسف ، ولا زلنا
نتوخى القصد فى كل مرحلة من مراحل الحديث عن هؤلاء •

فان رأى بعض القراء ما يظنه انحرافا فليبادر بإبداء رأيه ، وله
علينا أن نفيح له صدرنا • وننشر رأيه بتعليق أو دون تعليق •

فان أخشى ما أخشاه أن يفهم البعض أن للظروف السياسية

والاعتبارات القومية تأثيرا كبيرا أو صغيرا فيما يقرءون من معانى القرآن ويعلم الله اننى ما أريد الا الحق ، وله الشكر على ما وفقنى اليه من كشف القناع عن وجوه هؤلاء • بعد أن امتلأت أذهان العوام وأشبهاء العوام بأوهام كانت يد اليهود تدمسها فى تفسير القرآن لفساية تخدم خططهم الشيطانية ، وتخفى عن العرب والمسلمين خبيثة خداعهم وأطماعهم •• فلننضم مع القرآن لنتعرف منه فطرتهم فانه الحق الذى لا يأتية الباطل وهو كتاب من « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » •

بين عهدين ••

وقبل ان نمضى مع بنى اسرائيل فى العهد الجديد الذى صاروا اليه بعد وفاة موسى عليه السلام • نضع أمام الأنظار خلاصة ما عرضناه من ماضيهم فيما يلي :

١ - كانوا فى مبدأ أمرهم اثني عشر رجلا ، فلم يزعمهم الخوف من الله والوفاء لأبيهم أن يأتروا بأخيهم يوسف وهو طفل صغير فالقوه فى بشر مظلم ، ثم « جاءوا إياهم عشاءا يكون ، قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستيق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » •

٢ - هاجروا الى مصر مع أبيهم ليمشوا فى ظل أخيهم يوسف ، ثم عملوا من بعده فى خدمة الغزاة من أعداء البلاد التى أكرمتهم وآوتهم ••

٣ - رحل الغزاة عن أرض مصر ، فبقى هؤلاء حق تقاوم شرهم ، وانكشف أمرهم ، وظهر أنهم جواسيس فى عهد رمسيس ••

٤ - أنجاهم الله من آل فرعون ومن الفرق بقيادة موسى عليه السلام فلم يلبثوا حين وجدوا قوما « يكفون على اصنام لهم » ان قالوا لموسى : « اجعل لنا الها كما لهم آلهة » •

٥ - أمدهم الله فى صحراء سيناء بطعام من المن والسلوى فقالوا لتببهم « لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقتناؤها وفومها وعدسها وبصلها » •

٦ - ذهب موسى لتلقى التوراة من الله فعادوا - فى غيبته - الى عبادة العجل من دون الله •

٧ - رفضوا قبول التوراة ، ولم يذعنوا لها الا حين راوا الجبل فوقهم
« كأنه ظلّة وظنوا أنه واقع بهم » .

٨ - أمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة فحينوا عن ذلك . وعصوا أمره
وقالوا « ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » .

هذه بعض الملامح العسامة لطبيعة هؤلاء وسنرى أن أمرهم بأن
يتبها في الأرض أربعين سنة . لم يكن تدريبا بمقدار ما كان عقابا ..

في سبيل الملك ..

لم يكن موسى عليه السلام حالما أو واهما حين قال لقومه « اذكروا
نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء . وجعلكم ملوكا . وآتاكم ما لم يؤت
أحدا من العالمين » .

وانما كان ينظر من خلال الغيب الى ما سيكون لهم بعد وفاته بعدة
قرون . من ملك واسع عريض يستمد قوته وجلاله من معين النبوة وعون
السماء .

وكانه - عليه السلام - كان يعرف أنهم مع ذلك لن يذكروا هذه
النعمة العامة ، ولن يشكروا الله عليها . فقال ما يحكيه القرآن عنه
« اذكروا نعمة الله عليكم .. »

وكان المسيح - عليه السلام - كان يضع النقطة فوق الحروف كما
يقولون - حين قال لهم بعد ضياع ملكهم الى الأبد « دعوا ما لقيصر لقيصر
وما لله لله » .

لقد بعث فيهم أنبياء كثيرون فلم يفلحوا في تكوين مجتمع صالح
منهم ، وكان مصيرهم فيهم ما أخبر به القرآن من أنه « كلما جاءهم رسول
بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففريقا كذبوا وفريقا يقتلون » .

وقد آتاهم الله ما لم يؤت أحدا من العالمين ، فأنجاهم من آل فرعون .
ومن الغرق في البحر .. ومن الجوع والظلم في الصحراء ، وآتاهم في
التوراة بشرية تنظمهم . وتحكمهم . وتقودهم الى الخير ، وأدخلهم الأرض

المقدسة بعد أن كانوا لا يجدون مأوى يلجئون إليه • أو مستقرا يطمنون فيه ، فلم يكن منهم - مع كل هذا - ذكر لهذه النعم أو شكر عليها •

ومن ثم كان وعد الله أن يأخذهم بظلمهم وجرمهم ، وأن يقطعهم في الأرض أما ، وأن يبعث عليهم « الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » •

وكانت كلمة المسيح هي كلمة الصادق النصيح حين قال لهم « دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » •

ولكن أين من يسمع صوت القران • ومن يؤمن بكلام المسيح ؟

فتى موسى ••

كان يوشع بن نون وهو من سلالة يوسف عليه السلام هو فتى موسى الذى كان يصحبه فى كثير من أموره ، وهو الذى يعنيه القرآن فى قصة موسى مع العبد الصالح بقوله : « واذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا » •

وقد آل اليه أمر بنى اسرائيل بعد وفاة موسى ، فسار على الخط المرسومة والمنهج الذى سلكه سلفه ، ثم عبر بهم الى الأرض المقدسة بعد انتهاء المدة التى كتب الله عليهم أن يقضوها تائبين فى الأرض ••

وقد اختلف المفسرون فى أول بلد نزلوه واحتلوه من بلاد فلسطين فقال بعضهم انها « أريحا » وقال غيرهم انها « بيت المقدس » ، ولكنهم لم يختلفوا فى أن أول عمل قام به هؤلاء حين دخولهم أول قرية دخلوها هو عصيان الله • ومخالفة أمره • والتمرد عليه •

فقد طلب اليهم أن يدخلوا بابها • أو باب القبة التى كانوا يصلون اليها • تائبين ساجدين • داعين الله أن يحط عنهم ذنوبهم وأوزارهم « فبذل الدين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم » ، وعادتهم سجية المخالفة لكل أمر فيه خيرهم ، فلم يدخلوها ساجدين - وقد ذكرنا أن من معانى السجود الخضوع واحناء الظهر - بل دخلوها فى هيئة غير الهيئة التى أمروا ان يكونوا عليها ، وكان عقابهم على ذلك أن أنزل الله عليهم وباء من

السماء • يذكر المفسرون أنه أهلك منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرين ألفا ، ويذكر القرآن أن الله أنزل عليهم « رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » •

ومن ثم يظهر أن الأربعين سنة التي قضوها تأهين في الصحراء • والتي يرى بعض العلماء أنها مدة الحضارة الأخلاقية لكل أمة لم تنفع في تأديبهم وتهذيبهم واستئصال جذور الشر من نفوسهم • كأنهم طيعوا به وفطروا عليه ، أو كما يقال في الأمثال : ما بالذات لا يتخلف •

من القراء واليه

السيد المحترم الأستاذ العالم محرز « من معاني القرآن »

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته « وبعد » فأرجو الله الكريم أن يزيدكم علما وتوفيقا ، حيث اننى من المتبعين لدروسكم العذبة المفيدة بهجرية « الشعب » الفراء حول موضوع « من معاني القرآن » واننى أرجو لو تفضلتم - أن يشمل حديثكم بعض معاني الآيات الكريمة الآتية عن بنى إسرائيل ، ولكم الشكر الجزيل مع الدعاء بالتوفيق ، وفيما يلى بيانها :

أولا : من سورة القصص الآيتان ٥ و ٦ وهما « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (٥) ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحسدون » (٦) •

ثانيا : من سورة السجدة الآيتان ٤٣ ، ٤٤ وهما : « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى اسرائيل (٢٣) وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبرا وكانوا بآياتنا يوقنون (٢٤) » •

ثالثا : من سورة الدخان الآيات ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ : وهى « ولقد نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهيمن (٣٠) من فرعون انه كان عاليا من السرفين (٣١) ولقد اخترناهم على علم على العالمين (٣٢) » •

هذا وأرجو التفضل بمراعاة ما تحته خط أحمر • والسلام عليكم

عبدالله المهندس صلاح الدين

ورحمة الله وبركاته •

وكيل المراقبة الاقليمية للشئون

البلدية والقروية بالاسكندرية

قصة في كلمات ..

اولا ..

قلت في كلمة سابقة ان الآية الواحدة من القرآن تكشف للمتأمل فيها • والناظر اليها ما يكشف المجهر من ملايين الدقائق والحقائق التي تجتمع في ذرة من جسم • أو نقطة من دم أو قطرة من ماء •

وقد وقفت عند الآيتين اللتين وقف عندهما السيد المهندس عبد الله صلاح الدين وهما قوله تعالى : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » فوجدت قصة حياة بنى اسرائيل من بدء اضطهادهم في عهد فرعون وهامان الى قمة مجدهم في عهد داود وسليمان تتركز في هذه الكلمات ..

فقد كانوا اذلاء مستضعفين ثم من الله عليهم بالخلاص من ربقة الذل والاستعباد ، فكان الخلاص مما كانوا فيه منة من الله عليهم ، ولم يكن حقا لهم عليه كما يفهم من قوله تعالى : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » •

ثم كان من هؤلاء أنبياء كثيرون يهدونهم ويرشدونهم كما تصرح بذلك آية « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » فكان خليقا بهم أن يرتفعوا الى درجة الامامة والزعامة ، ولكنهم كان شأنهم مع الأنبياء ما ذكرناه وكرهناه « فريقا كذبوا وفريقا يقتلون » •

ثم كان من الله معهم آخر اختبار ، فأورثهم أرض الكنعانيين وغيرهم من سكان البلاد الأصليين ، ومكن لهم في الأرض زمن داود وسليمان بعد أن عاشوا مئات السنين في تنقل وتجوال وترحال ، ولم يكن ذلك نتيجة قتال واستبسال • وانما كان ثمرة نبوة سخر الله لها الريح والطير والجبال كما سنرى عند الحديث عن داود وسليمان •

وقد لقي فرعون وهامان وجنودهما من هؤلاء ما كانوا يحذرون من سوء المآل بسبب ما انتهى اليه أمرهم مع هؤلاء وغيرهم من المتو والفلول والطفليان والتأله بدليل قوله تعالى « فحشر فنادى » فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والاولى « فان الفاء في قوله « فأخذه الله » تدل على أن هلاكه بالفرق كان النتيجة المترتبة على الكفر والتأله والطفليان ، ولم يكن تكريما وتظيما لبنى اسرائيل كما قدمنا •

امامة موقوتة ..

ثانيا ..

اما قوله تعالى « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني اسرائيل ، وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » فيمكن أن نفهم منه ما يلي :

أولا : ان هاتين الآيتين - وهما مكيتان - نزلتا على النبي صلى الله عليه وسلم في بدء الدعوة الى الاسلام ، وقد كان النبي في دهشة من أن يطلب اليه جبريل وهو أمي - أن يقرأ ، والقراء يعرفون هذه القصة ويذكرون رد النبي عليه بقوله ما أنا بقارىء ..

في هذا الجو النفسى كان قوله تعالى : « وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » وقوله : « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه » الى آخر الآيتين ، ليطمئن قلبه - صلى الله عليه وسلم الى أن ما يتلقاه من الله حق لا شك فيه ، والى أن هذا الكتاب من عند الله « لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

وكانه تعالى يقول لنبيه عليه السلام : ليس بصحيح ولا غريب أن تتلقى كتابا من الله ، فلا تكن في شك من لقائه ، فقد آتينا موسى من قبلك كتابا وجعلناه هدى لبني اسرائيل ، فكان منهم ائمة يهدونهم ويرشدونهم الى ما في الكتاب من حكم وأحكام بأمر من عندنا ، وكانت هذه الامامة موقوتة بالزمن الذى تحملوا فيه الصبر . وتحملوا باليقين .

ثانيا : اذا قرن قوله تعالى فى بنى اسرائيل « وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » بقوله سبحانه فى المسلمين « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » ، فهم أن عامة المسلمين فى موضع الامامة والزعامة بين عامة الناس ، وان خاتم الانبياء والمرسلين فى الموضع الذى اختاره الله له بين حملة الديانات والرسالات .

ثالثا - من الواضح أن المراد بالائمة فى الآية الثانية هم الأنبياء من بنى اسرائيل ، وما كان أكثر صراهم بالأيدى الاثيمة التى امتلئت اليهم ، وما أكثر الأيدى التى تلوثت بدم الجريمة فى بنى اسرائيل .

اختيار للاختيار

وثالثا :

قلت في كلمة سابقة ان الذهب والتراب يتفاضلان في تقديرنا على أساس الحاجة اليهما . والمنفعة فيهما ، ولا يتفاضلان في تقدير الله لانه لا يحس حاجة ، ولا يسعى الى منفعة ، وقد خلق بنو اسرائيل كما خلق جميع الناس من ذكر وأنثى . . . من آدم وحواء . . من ماء وطين . من هذه الأرض التي يقول الله فيها : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

وعلى هذا الأساس يمكن السسيه عبد الله صلاح الدين أن يفهم من قوله تعالى في بنى اسرائيل « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » ان الاختيار للاختيار . لا للايثار ، وان هذا الاختيار لم يكن لمعرفة شيء كان مجهولا لله ، فانه - جل شأنه - يعلم كل ما كان . وكل ما سيكون قبل أن يكون ، وانما كان الاختيار لاشهار أمرهم واطهارهم على حقيقتهم ، حتى تقوم عليهم الحجة . فلا يجدوا سبيلا الى المذرة ، وطلب المغفرة ، وحتى يعرف الناس أمرهم فلا ينخدعوا بهم .

فقوله تعالى « على علم » بعد قوله : « ولقد اخترناهم » للاحتراس حتى لا يقع في روع بعض الناس أن هذا الاختيار كان وضعا للشيء في غير موضعه ، ولا يكون ذلك الا عن جهل أو غفلة أو عيب . تعالى الله عن ذلك ، لهذا كان قوله تعالى « على علم » مشعرا بأن الاختيار كان للاختيار . وان الاختيار كان للاعذار . واقامة الحجة واطهار أمرهم لغيرهم . .

ومعاذ الله والحق والاسلام أن نهمل - في ضجة الحديث عن عامة بنى اسرائيل - الاشارة بفريق منهم يقول الله فيهم « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » والامة الجمامة ، فقد كان منهم صالحون كما يقول الله « وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالחסنات والسيئات لعلمهم يرجعون » .

فليذكر القراء معنى « وبلوناهم » ليلوح لهم معنى « ولقد اخترناهم » .

نظام عام ..

عندما دخل يوشع بن نون فتي موسى مع قومه الارض المقدسة قسم لهم ما احتلوه منها ، وقام بأمرهم حتى لقي ربه ، ثم كان النظام العام الذي ساد مجتمعهم عدة قرون يقوم على أربعة أركان .

انبياء يستمدون الوحي من السماء . ويتولون ارشاد القضاة .
وقضاة يحكمون فيما يقع بين بني اسرائيل من خصومات ومنازعات
وحكام ينفذون أوامر القضاة ، ويقومون على حراسة الامن وحماية المجتمع .

وقوم يخضعون لهذا النظام عرفوا بالمكر والغدر والفساد ، ولم تفلح في اصلاحهم معجزات الانبياء . وقوانين السماء .

وكان بنوا اسرائيل مع جيرانهم من العرب والعدنانيين والفلسطينيين والآراميين في نزاع دائم . وهم لازم ، فلم يدعمهم أولئك أو هؤلاء يطمنون في الارض التي نزلوها أو احتلوها ، بل شنوا عليهم الغارات تلو الغارات حتى أفلقوا مضاجعهم ، فكان هؤلاء تارة ينجحون في صدهم وتارة يفشلون ، وكانوا اذا اشتبكوا معهم في معركة أخذوا معهم التابوت وهو صندوق كان فيه بقية من ألواح التوراة المكسورة — تيمنا به وتبركا بما فيه .

ثم دخلوا مع الفلسطينيين بأسدود في حرب بالقرب من غزة فدارت عليهم الدائرة ، وأخذ منهم التابوت ، ووضع في مكان بيت « داجون » وهو معبد لاله كانت رأسه رأس انسان ، وجسمه جسم سمكة كما يذكر الرواة .

وعاد بنوا اسرائيل بذل الهزيمة . وعار الاسر . وخيبة الأمل ، ثم جمعو شتات فلولهم المنهزمة ، واستجمعوا شجاعتهم المتوهمة وقالوا « لنبي لهم ابعت لنا ملكا نقاتل في سبيل الله ، قال هل عسيتم ان يكتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا . فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين » .

بداية الملك ونهايته :

نبي ٥٥ وملك

٥٥ كان النبي الذى لجأ اليه بنو اسرائيل ليعين لهم ملكا عليهم يدعى « صمويل » *

وكان الملك الذى آل اليه امرهم يدعى « شاول » أو « طالوت » .
كان صمويل يعرف ما عرف عن قومه من جبن لازم لا يكاد ينفك عنهم كما يفهم من قوله لهم فيما حكاه القرآن عنه « هل عسيتم ان كتب عليكم القتال الا تقاتلوا » *

وكانوا مخدوعين فى أنفسهم أو خادعين لنبيهم حين قالوا ما يحكيه الله « وما لنا الا نقاتل فى سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا » فانهم ما لبثوا حين رأوا العدو أن قالوا « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » *

ثم كان لهم الملك كما طلبوا ، وتحقق ما كان يراه موسى من خلال الغيب حين قال لهم قبل أربعة قرون « اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا » *

لكن هذا الملك لم يكن فيهم ثمرة اجتهاد أو جهاد أو عصبية وانما كان نعمة من الله ومنحة سماوية ، وسنرى فى قصة طالوت وداود وسليمان أن هذا الملك القصير كان ثمرة للنبوّة ، ولم يكن بالنسبة لهؤلاء نتيجة فتوة أو قوة ٥٥

وكان طالوت أو « شاول » دباغا يبحث عن حمير ضاعت لأبيه ، ثم أعياه البحث فتوجه الى النبي « صمويل » ليجد عنده خبرها . ويدله على مكانها ، ولم يكذ صمويل يراه . ويقيس طولهم بعضاه . حتى عرف أنه الملك المنتظر ، وأخبره بما سيؤول اليه أمره ، ثم التمس فى اليوم

الثاني فوجده مختبئا بين الأمتعة • يخشى أن يراه بنوا اسرائيل فيوسعوه
سخرية منه • وتندرا عليه • وتفكها به •

وصح ما توقعه « شاول » من بنى اسرائيل • •

فلم يكذ يظهر مع صمويل امامهم • وتراه أعينهم حتى هاجوا وماجوا
وقالوا « أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة
من المال » فأجابهم نبيهم بقوله « ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة
فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم • »

(آية الملك)

لم يقتنع بنوا اسرائيل بما سمعوا من كلام نبيهم « صمويل » وظال
بهم اللجاج والحجاج حول تعيين طالوت ملكا عليهم • •

فقال لهم نبيهم : « ان آية ملكه ان ياتيكم التابوت فيه سكينه من
ربكم وبقيه مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ان فى ذلك لآية
لكم ان كنتم مؤمنين • »

وكانت قلوبهم متعلقة بهذا التابوت الذى اخذه الفلسطينيون منهم
فى معركتهم الأخيرة بالقرب من غزة - كما قدمنا - فلما فوجئوا به يعود
اليهم شعروا بالارتياح والانصراف ، وغمرتهم السكينه والطمانينه ، والقوا
بزماء امرهم الى طالوت او « شاول » فكان اول اسرائيلى يمكن أن يطلق
عليه اسم ملك بنى اسرائيل •

وجمع طالوت الجنود ليحارب بهم أعداءهم • ويسترد منهم ما غنموه
من اموال وديار بنى اسرائيل ، ثم سار بهم فى طريق وعرة مقفرة حتى
شارف النهر فحذرهم - قبل أن يعبروه - من الاسراف فى الشرب منه
وقال لهم ما يحكيه القرآن عنه « ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه
فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده • »

ولكن أين يقع هذا النصح من قوم اعتادوا أن يعصوا أنبياءهم وأن
يكونوا مع شهواتهم حيث تكون • • ؟ لقد كاد يضلهم الظلم • فلن نفوتهم

هذه الفرصة لينقموا فلتهم بما يرون من ماء عذب زلال : بل كان منهم ما يحكيه القرآن بقوله « فشربوا منه الا قليلا منهم »

ثم كان من هذا القليل جيش طالوت الذى صحبه الى مبارزة الأعداء ، ومع هذا لم يلبثوا - حين رأوا كثرة عددهم وعلى رأسهم جالوت أن قالوا « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » وعادهم الجبن الذى قعد بأبائهم عن طاعة موسى حين طلب إليهم أن يدخلوا الأرض المقدسة فقالوا « ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها »

(طالوت وجالوت)

كاد طالوت ينهزم بجيشه حين سمع دماء الهزيمة من قومه يقولون « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » ولكن حال دون ذلك صيحة أخرى هتف بها رجال مؤمنون وقالوا : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » .

ويذكر القرآن أن هؤلاء حين برزوا لجالوت وجنوده قالوا « ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين »

ويذكر بعض الرواة أن الجيشين التحما في معركة أو عدة معارك لم يرجع فيها جانب على جانب ، فبرز جالوت يتصدى ويتحدى ونادى طالوت ليخرج إلى مبارزته على أن يكون للقاتل مملكة المقتول .

ولكن طالوت تهيّب أن يلقاه ، ولم يجرؤ على مواجهته ، فنادى في عسكره من قتل منكم جالوت ، زوجته ابنتى . وجعلته شريكا لى فى ملكى ، فلم يجرؤ كذلك واحد منهم على لقاء جالوت .

ثم حدثت المعجزة أو النجدة السماوية .

فقد ذهب شاب صغير الى اخوته وهم يحاربون مع طالوت ثم سمع بما وقع من جالوت ، فتقدم الى طالوت وطلب منه أن يأذن له بمبارزة هذا الجبار الذى يتحده ..

ويذكر بعض الرواة أن النبى « صمويل » أوحى الله اليه بأن ولدا

من اولاد « ايشى » سيقتل جالوت ، فتفقدته حتى عرفه ، ثم بعث به الى طالوت .

وعلى اية حال لقد تقدم هذا الشاب للملاقاة هذا المارد الجبار ، ورفض ما قدم له من فرس وسلاح ودرع ، وقال ان لم ينصرني الله فلن يغنى عنى هذا السلاح شيئا ، ثم اخذ مقلامه ومضى . .

ولما ابصره جالوت ادخل الله في قلبه الرعب منه - على ما كان يتمتع به من قوة وبأس - فقال له : اقاتلنى بالمقلع كما تقاتل الكلاب . . ؟

قال داود : نعم . وقذفه بحجر اصاب جبهته ، ثم وثب عليه وانزع السلاح منه وجز به راسه ، ثم كان ما يحكيه القرآن بقوله « فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت واثابه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء »

(الفصل دائما ٠٠)

طارت شهرة داود بين بنى اسرائيل وعظمت منزلته فيهم ، فلم يجد طالوت مناصا من أن يروجه ابنته ، ويجعله المقدم بين رجال الحرب من قومه . .

ولكنه ما لبث أن تغير قلبه عليه ، بعد أن أحس تعلق بنى اسرائيل به ، فعمل على التخلص منه قبل أن يتطلع الى الملك ولم يلق بالا الى ما كان يسمعه من ابنه « يونانان » من ثناء على داود واشادة باخلاصه في خدمته ، بل أضمر في نفسه الغدر ، واحتال للايقاع به ، فلم يظفر منه بما كان يريد .

بعث به في كثير من المعارك ليقتل في واحدة منها ، فعاد اليه ظافرا في جميعها ، وازداد الاعجاب به . والثناء عليه بين قومه .

ودبر مع جنوده وأعوانه مؤامرة للفتك به . والقضاء عليه ، فلم تنجح المؤامرة في تحقيق غرضه ، بل نجح داود في النجاة منها ، ولم يتقرر مع ذلك في التنكيل بأعدائه وأعداء قومه . .

وكان داود كلما أصاب نجحا فتح في قلب الملك جرحا ، فرأى أن

يهرب بعد أن أيقن أن الملك مصمم على قتله ، ولسكنه كان كالمستجير من
الرمضاء بالنار .. !

فقد انتهى به المسير الى اعداء الملك الألداء . فعادوا به اليه وحوضوه
على قتله ، ليشفوا نفوسهم بمصرع داود أمام أعينهم بعد أن صرع منهم
الكثير في الحروب التي اشتبك فيها معهم ..

ولكن داود تظاهر - كما يذكر الرواة بالجنون ، فوقع في روع الملك
أنه كذلك ، وظن أن القدر قد تولى اراحته منه دون أن يحمله تبعه قتله
أمام الناس ، فأمر غلمانه بإبعاده ، ولامهم على أن أدخلوا عليه فتى مجنوناً
في بيته ..

وخرج داود من بيت طالوت على ألا يعود اليه .

ولكن تقدير الله كان فوق تقدير طالوت .

ولم يكن المقدار فيما علمته .. ليسعد عبداً أوبقته ذنوب .

(داود في مفارقة)

لجأ داود بعد أن خرج من بيت طالوت الى مفارقة نائية في مكان بعيد
من طالوت وشربه ..

ولحق به اخوته وأهل بيته ، ثم تبعهم كل متضايق ومدين كما يقول
الرواة - حتى تكون منهم جمع كبير ، فانتقل بهم داود الى مكان آخر في
أرض يهوذا - كما يقولون أيضاً -

وسمع طالوت بأمر داود فلام رجاله على عدم إخباره بأمره ، وقتل
الكهنة الذين اتهموا بمشايمة داود والتعصب له ، ثم أخذ يتحين الفرص
للايقاع بـداود ومن معه ..

ولنختصر هذا الجانب من ذلك التاريخ بحوادثه وأحداثه قليلاً
من فرضنا أن نعرض سلسلة الحوادث لتسلية النفس . وتزجية الفراغ
وانما نعرض للمعالم الواضحة في تاريخ هؤلاء لنستخلص منها العبر ،
فنقول ان طالوت لم يتمكن - بكل ما دبر من مؤامرات من القضاء على

داود والفتك به وبرجاله .. ولما يسس داود من صلاح حاله معه ذهب الى الفلسطينيين وطلب من ملكهم أن ينزله في قرية من قراه كي يقيم بها هو ورجاله ، فأجابه الملك الى ما طلب ، ورأى في ذلك فرصة لعقد هدنة معه يأمن بها قوته وبأسه .

ولكن داود لم يكد يقيم في هذه القرية حتى وجد طالوت ينهض لمحاربة الفلسطينيين مرة أخرى . فخرج معه برجاله على الرغم من كل ما حدث منه ليعينه على حرب الفلسطينيين ، ولكن طالوت مع ذلك تخوف منه . وسمع لنصيحة قادة جيشه . فرده بعد مسيرة ثلاثة أيام كما يذكر الرواة .

وعاد داود الى القرية التي خرج منها فوجد الفلسطينيين قد انتقضوا عليها ، وسبوا نساءها وأطفالها وكل شيء فيها ، ثم أحرقوا مابقى منها ، فجند في أثرهم . وأفحش في قتلهم . واسترد منهم ما أخذوه .. وفي هذه الأثناء كان طالوت قد انهزم جيشه ، وقتل مع ثلاثة من بنيهِ ، وجلسا بنو اسرائيل عن المدن القريبة من مكان المعركة وسكنها الفلسطينيون ، وبدأ الجو يخلو لداود ..

(خوارق ومعجزات)

لم يكن داود يعلم أنه سيحارب مع جيش طالوت .

ولم يكن قد جرب الحرب قبل ذلك في معركة من المعارك ولكنه مع هذا كان شديد البأس عظيم القوة . مؤيدا من الله ..

فقد قيل فيما قيل عنه في أثناء صفه : انه جاء لابيه يوما فقال له : يا أبت . لقد كنت بين الجبال . فوجدت أسدا رايبضا . فركبته . وأخذت بأذنيه . فلم يصيبني بشر . فقال له أبوه : هذا خير يریده الله بك .

ولن نمضي مع هذه الأخبار التي استفاضت عنه قبل أن يصير اليه زمام الملك ، فقد تشور حولها الريب والظنون ، وانما نشير بها الى ما كان له من بأس وقوة وأحوال لم تعرف في انسان عادي .

وقد ذكر القرآن - وهو حق لا يأتيه الباطل - أنه كان ذا إيد وقوة،
وان الله الآن له الحديد ، وأنه سخر له الجبال والطير ، وأنه شد ملكه
وأناه الحكمة وفصل الخطاب ، وذلك حيث يقول الله فيه « وسخرنا مع
داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم
لنحسنكم من بأسكم » وحيث يقول : « ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال
أوبى معه والطير وأنا له الحديد ، أن عمل سابغات وقدر في السرد »
وحيث يقول : « واذكر عبدنا داود ذا الإيد أنه أواب » ، « وشددنا ملكه
وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب »

كان الملك أذن ملك داود لا ملك بنى اسرائيل .

وكان بمعجزات وخوارق سماوية لا بجهود المصائب الاسرائيلية .

وكان ثمرة نبوة مؤيدة من السماء ، لا ثمرة لهذه الشجرة الملعونة
في الأرض .

اسمعوا وعوا ..

أمضى داود سبعة أعوام قبل ان تتم له السيطرة على بنى اسرائيل
فقد كان ينازعه الملك والسيادة « الشيشوت » بن طالوت بعد وفاة
أبيه ، ثم عجل القدر بنهايته فأراح داود منه . وأخلى الجو أمامه ، فانطوى
تحت لوائه عامة بنى اسرائيل ، وانتقل الى « صهيون » وهو تل أو حصن
يقوم على تل ، وبني هناك مدينة أطلق عليها اسمه ..

ومن ثم كان « صهيون » هو منزع الفكرة الصهيونية ، وكان اسمه
الحلم الذي يداعب خيال هؤلاء الموزعين في كل أرض بأمل العودة الى
« صهيون » .

ونسى هؤلاء الحالون الواهمون أن تلك الدولة لم تكن ثمرة طبيعية
للمجتمع الفاسد الذي كان يتكون من آبائهم وأجدادهم ، وإنما كانت كما
أشرنا - ثمرة نبوية ومعجزة سماوية ، فقد الآن الله الحديد لداود .
فعمل منه دروعا سابغات ، وعلمه منطلق الطير ، وآناه الحكمة . وسخر
له الجبال يسبحن معه بالعشى والاشراق ، ثم كان ابنه سليمان تجري
بأمرة الريح . وتخضع له الجن . وتسمع له الطير ، وتلصق لأمره

الشياطين ، وقد ذكر القرآن كل ذلك فقال عن عمل الجن معه « ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه » وقال عن تسخير الشياطين له « والشياطين كل بناء وغواص » وذكر أن المباني الضخمة . والعماير الفخمة . والهيكل الذي كان يفاخر به بنوا اسرائيل غيرهم . من عمل هذه القوى الخفية فقال : « يعملون له ما يشاء من محارب وتمائيل وجفان كالجواب وقدور راسيات » وقال : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون »

لهذا لم يكن عجيبا أن ينهار هذا الملك بعد موت سليمان وأن يعود بنوا اسرائيل كما كانوا الى الأسر والتشرد ، فيعدو عليهم بختنصر ويسوفهم أسرى الى « بابل » ثم يعودون ليقعوا في قبضة اليونان . ثم الرومان ثم يعودون الآن لتدور عليهم الدائرة ، ويتحقق فيهم وعد الآخرة كما يفهم من قوله تعالى « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » .

٥ الداء والمواء (. .)

أن داء الفرقة هو الوباء الذي حمله الاستعمار وأذنبه الى صغرف العرب والمسلمين وهو الذي مكن لاسرائيل أن تقوم بينهم الآن كما مكن لها أن تقوم في قديم الزمان .

وقد ذكر هذه الحقيقة دافيد بن غوريون في مقدمة الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل عام ١٩٥٢ كما يقول الاستاذان « هاني الهندي ، ومحسن ابراهيم » في كتابهما « اسرائيل » فقد نقلنا عن ابن غوريون ما يلي :

جاء احتلال فلسطين من قبل يوشع بن نون في وقت كانت فيه القبائل في فلسطين وعلى حدودها غارقة في صراع دام بينها ، وكان على اليهود أن يمضوا سنوات طويلة يصارعون هذه القوى . حتى أقاموا مملكة اسرائيل بقيادة شاول « طالوت » وداود ، ولكن هذه المملكة لم تعيش الا لجيئين من الزمن ، ولقد خدم التنافس الدائم بين مصر وبابل مملكة اسرائيل خدمات جلى في الحفاظ على بقائها واستمرارها لآمد طويل . . .

هذه هي الحقيقة وهذا هو الداء ، فهل قرأ ذلك اخواننا في الأردن والعراق وفي كل بلد يعيش فيه عرب ومسلمون .. ؟

وهل يعرف الدين يتصايحون بالنعرات الاقليمية في مصر أو في العراق أو في لبنان أو في أي بلد يعيش فيه عرب ومسلمون انهم بذلك يفسحون الأعداء الطريق الى ذبحهم . وسفح دمايتهم ، وبناء دولتهم على جماجم رجالهم وأعراض نسائهم .. ؟

يا قومنا أجيئوا داعي الله «وأعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» واذكروا الحقة الجياح من اخوانكم الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق .

ان ما قاله ابن غوريون هو نفس معنى ما قاله « شاس بن قيس اليهودي » حين وجد الاوس والخزرج مجتمعين على الود والاخاء بعد العداوة والبغضاء . ففاضله أن يؤلف الاسلام بينهم وقال : مالنا مع هؤلاء اذ اجتماعوا من قرار .

فمتى يعود المسلمون الى حبل الله يمتصمون به ليعودوا كما كانوا « أشداء على الكفار رحماء بينهم »

(بداية النهاية)

كان ملك داود على ما انتهى اليه من قوة وسلطان يحمل في بناءه نذير فتنائه ، ولعله علم بهذه الحقيقة من الزبور الذي كان يترنم بقصائده وأناشيده ، فقد جاء فيه ما يحكيه القرآن ولا ينكره الانجيل « ان الأرض يرثها عبادي الصالحون » .

بل ان دعاء ابنه سليمان من بعده كان يشعر بهذه الحقيقة . ويشير اليها ، فقد حكى القرآن عنه أنه قال « رب أغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي انك انت الوهاب » ، ثم كان له ما تطلع اليه من ملك واسع وجاءه عريض ، بفضل من الله لا اثر فيه لبني اسرائيل ، وحسبنا في التذليل على هذا - فوق ما ذكرناه وكررناه - أن نشير الى قصته مع ملكة سبا ، فقد قال لمن حوله « أياكم يابئني بعرشها قبل أن ياتوني مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك واني عليه لقوى

أمين . وقال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني اأشكر ام أكفر » .

وفى هذه العبارة الأخيرة التفسير اللائح الواضح لكل ما أنعم الله به على بنى اسرائيل فى ذلك التاريخ البعيد الطويل ، فقد كان يختبرهم بالسيئات والحسنات ، فلم يكن منهم الا ما عرفوا به من غدر ومكر وكفر ، وكان أنبيأؤهم يدكرونهم بما أنعم الله به عليهم فلا يدكرون ولا يشكرون ولا يعتبرون .

ثم كان من الله معهم ان اقام لهم ملكا لا يقع فى وهم واهم او حلم حاله ، فسخر الجن والانس والطير فى ارساء قوائمه . وبناء دعامته فكان من هؤلاء ما عرفوا به ، ولم يتخلوا عنه من لؤم الطباع . ونفساد الأوضاع وشره الأطماع .

ومن ثم كان أول حديث من القرآن لبنى اسرائيل ما ذكرنا . ووقفنا عند بعض آياته « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأولوا بمهدى أوف بمهدكم وآياى فارهبون » .

وكان هذا الحديث بعد الحديث عن ابليس وقصته مع آدم ، كان هؤلاء من ابليس وجنوده بمنزلة الأبناء من الآباء . وسنعود الى تفسير ما وقفنا عنده من آى الذكر الحكيم .

أما بعد ..

فقد كان هذا العرض الموجز — على طوله — لهذا التاريخ القديم من حياة بنى اسرائيل استجابة لرغبة أبداها كثير من القراء ، ووجدت فى نفسى مثلها لعدة اعتبارات منها : —

أولاً — المبادرة بازالة الشبهات التى خلقت بأذهان العوام من آيات منشورة فى القرآن حسبوها أشادة بنى اسرائيل ، وهى عند التأمل الدقيق العميق تشهير بهم . ونعى عليهم ، تذكير لهم ولغيرهم من الناس بما كان من الله معهم . وما كان منهم مع الله ومع أنبيائهم ..

ثانياً — الكشف عن سجاياهم وطواياهم التى عرفوا بها . وعاشوا

عليها من قديم الزمان حتى الآن ، لكي يعرف القراء من أبناء العرب والمسلمين صورة هؤلاء كما يرسمها القرآن ، فانه المرأة الالهية الصادقة التي ترى فيها الحقائق كما يراها الخالق .

ثالثا - التمهيد لشرح ما وقفنا عنده من آيات متلاحقة تمثل كل واحدة منها طورا من أطوار حياة بنى اسرائيل ، وتستوعب - على ايجازها - كل مآلقه وذآقوه من ألوان السيئات والحسنات .

رابعا - تفنيد ما توهموه وزعموه من أن الارض المقدسة حق كتب الله لهم ، والارض كما قال لهم موسى فى مصر « لله يورثها من يشاء من عباده » وكما وجدها داود فى الزبور « ان الارض يرثها عبادى الصالحون » وهى من قبل ومن بعد لم تكن لهم ولا لأبائهم دارا أو قرارا ، فقد كان التنقل والتجوال والترحل والتشرد طابع حياتهم منذ كانوا حتى الآن .

خامسا - بيان أن الملك الذى أظلمهم فترة قصيرة من الزمان كان ثمرة النبوة ، ولم يكن بالنسبة لهؤلاء نتيجة اجتهاد أو جهاد أو عصبية .

هذه هى بعض الاعتبارات التى دفعتنى الى الاستطراد فى الحديث عنهم ، وسنعرض لوقفهم من الاسلام والمسلمين عندما تحين المناسبة فى مواطنها من القرآن .

(المخترعات الحديثة)

سيدى الاستاذ صاحب الفضيلة محرو باب « من معانى القرآن ، بالشعب - السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » وبعد .

فانى من المتبعين قراءة باب (من معانى القرآن) ومن المعجبين به لسهولته وأيجازه . مما يجعله يثبت فى العقول ، وانى ياسيدى أرجوك أن ترحم ضعاف الإيمان من أن تتزعزع عقيدتهم الاسلامية بما يقرءونه من المخترعات الحديثة كالأقمار الصناعية والصواريخ الوجهة . وصناعة قطع غيار للجسم ، والعمل على اطالة العمر ، وغير ذلك من مختلف الاختراعات . مما يجعلهم يتشككون فى القدرة الالهية وغاب عنهم قوله تعالى « ويخلق ما لا تعلمون » .

سيدى الاستاذ : ارجوك ان تسخر قلمك فى هذه الايام لانقاذ الاسلام والمسلمين من اراجيف المرجفين وتضليلهم ، وان تؤيد اقوالك ياسيدى بالآيات القرآنية التى تثبت بعد تلك الاختراعات عن ان تمس الدين . وهو العقيدة التى تملأ قلوب المؤمنين ، ولا يزعمها أى شيء اطلاقا ، ولكم من الله الأجر ، ومن القراء الشكر ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ابراهيم محمد ليبب
رئيس قلم سابق بالأوقاف

ياسيدى الفاضل ان القرآن لا يزال يتحدى الناس جميعا ان يخلقوا ذبابا فيقول : « يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم اللباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب »

والقرآن يهيب بالناس جميعا ان ينظروا ، وان يفكروا فى خلق السموات والأرض ، وان ينتفعوا بما خلقه الله لهم فيها ، فسينتهى بهم النظر الى الايمان والسلم . والخير الميم .

بل ان القرآن ينبه اذهان الناس فى كل موضع منه الى ان الله لم يخلق شيئا فى هذا الوجود عبثا أو باطلا ، بل كل شيء فيه خلق لوظيفة يؤديها ، فعلى الانسان ان يبحث عنها ويستقصيها . ويصل على ان ينتفع بها . . .

فقد اودع الله فيه عقلا يضئ له الطريق الى معرفتها ، ويكشف له السبيل الى السعادة فى الاولى والآخرة .

وليقرأ الاستاذ ابراهيم محمد ليبب - وكل من يقرأ - قوله تعالى : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فكنا عذاب النار ، وقوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . . . الخ » .

ان الصواريخ والأقمار الصناعية وما اليها من كل هذه المخترعات الحديثة - على مالها من قيمة عظيمة وأثر بالغ الخطر فى الحضارة الانسانية -

لاتساوى عند أهل الفهم والعلم جناح بعوضة أو خلية حية فى جسم أى انسان أو حيوان ٠٠

عيبنا - نحن المسلمين - فى الجهل بكتابنا مع انه الكتاب الذى لم يدخله تحريف أو تزيف ، وانما كان الانحراف فى سوء الفهم ، واستفلاق العقول دون العلم ، حتى فهمنا من ذكر الله مجرد حلقات تقام فى المساجد ، ولم نفهمه عملا عقليا ينظر ويعتبر ، ويرى فى كل ما خلق الله دليلا على قدرته وحكمته ، ثم يقول عن دراية واسعة وبصيرة مستنيرة « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانهك » .

تجربة قاسية ٠٠

وقد كنت أقرأ قول الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم : « أيعسب الانسان أن لن نجعل عظامه ، بل قادرين على أن نسوى بنانه » فيحضرنى ما قيل عن اختلاف بصمات أصابع الناس من جميع الألوان والأجناس . حتى بين التوائم المتساويين فى الخلق والتكوين . فاقنع بالحكمة فى إشار هذا الموضع من جسم الانسان على ماعده .

ثم شاء الله - وله الحمد على كل حال - أن يطير طرف أصبع لى فى باب سيارة أغلق عليه دون عمد ، فماذا كان منى ، وماذا كان من الطب معى ٠٠ ؟

ان فتح البطن فى عملية جراحية ، بل ان أية عملية جراحية فى الجسم أو المظم من جسم الانسان . قد يقوم بعدها الجريح سليما معافى ملتئم الجرح بعد اسبوعين أو ثلاثة ، ولكن هذا البنان الذى طارت منه قطعة من لحم وعصب . كأنما التقطها منقار طائر . لم يبرأ بعد خمسة وأربعين يوما . بل بقى حتى الآن وبعد مضى عام ونصف عام ناقص التكوين مخدر الأحساس ، لا أجد فيه الشمور الذى أجده فى بقية الأطراف والمواس .

ومن ثم فهمت فوق فهم . وعلمت فوق علم لماذا اختار الله هذا الموضع بالذات حين قال فى تقرير أمر البعث بعد الموت : « أيعسب الانسان أن لن نجعل عظامه . بل قادرين على أن نسوى بنانه » .

كان محمد عليه السلام يعرف دون معلم أو ملهم دقة التركيب العجيب في هذا الموضع من جسم الانسان ، أم أنه كان كما يقول الله :
« وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » •

مرحبا بالطلب • وبكل علم من العلوم الكونية يشترك معنا في تفسير آيات الله التي يزخر بها القرآن • ويشير اليها بقول الله فيه « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » ، ونعوذ بالله أن نكون ممن قال الله فيهم « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم اضل » •

• • التفسير بالعلم

وقد ضمنى مجلس إنزال صديق كريم ، ثم دار الحديث حول تفسير القرآن بالعلم الحديث ، فقال : دكتور كبير وأديب مشهور : أنا لا أرى تفسير القرآن بالعلم • لأن قضايا العلم تتغير ، وقد يطل بعضها بعضا ، ويلغى اللاحق منها السابق ، ومن ثم لا تصلح أساسا ليقام عليه تفسير سليم • •

قلت : ان القرآن من عند الله ، فلا تتعارض حقيقة علمية مع قضية من قضاياها ، وقد أنزله الذي يعلم كل جهر وسر ، فلا يكون قوله — مع الايمان بهذا — الا الصديق والحق ، وهذا يفهم من قوله تعالى : « قل أنزله الذي يعلم السر » وقوله « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » •

قال : ان ما نسمعه ونقرؤه من مسائل العلم على أنه حقائق • قد يصبح في يوم من الايام وهما من الاوهام ، فكيف نقيم تفسير القرآن على مسائل لم يكتب لها الاستقرار ، وقد يصيبها التعديل أو التبديل • •

قلت : هناك الى ذاك حقائق كثيرة لا سبيل الى انكارها ، لانها ثمرات استقراء واستقصاء وتجارب ، فاذا رأينا فيها ما يكشف عن جوانب في القرآن لم تعرف من قبل ، فما يمنع من الاسترشاد بها في تفهمه والانتفاع به • • •

ان محاولة عزل القرآن عن أضواء العلوم الحديثة قد يكون من وراثها
رغبات مشبوبة بالفرض والمرضى ، فان هذه الأضواء تزيد تالفا في أعين
الناظرين اليه والمتأملين فيه ، وبذلك يزداد الايمان به والحرص عليه ،
وهذا ما لا يرضى عنه اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، وراوا في هذا
الكتاب ما راوا . من قوة دافعة نافعة جمعت العرب على مبادئه ، ودققت
المسلمين على هداياه ، وجعلت منهم خير أمة أخرجت للناس .

ان القرآن معجزة علمية فوق أنه معجزة أدبية واصلاحية ، وحسبنا
دليلا على هذا أنه أنزل على رجل لم يكن يعرف القراءة والكتابة ، ثم طال
به الزمان ، وصار العلم ما صار اليه الآن ، فلم يغير منه ، ولم يبدل فيه ،
بل بقي القرآن كما كان . لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل
من حكيم حميد . *

في ندوة ..

وبهذه المناسبة أذكر تجربة من نوع آخر عرضت لي منذ عدة
أسابيع . فقد دعيت الى الاشتراك في ندوة من الندوات التي تعقد في
المدارس لبحث مشاكل الشباب .

وعلى الرغم من أنني لم أخطر بموضوع البحث أكد على زميل صحفي
ضرورة حضور هذه الندوة لخطورة ما سيقال فيها كما قال . *

ثم كانت المفاجأة أن يكون دوري فيها بيان رأى الدين في « العادة
السرية » ، وإن أردت أن أستعد على ما يوجه الى من أسئلة . *

وانعقدت الندوة وتكلم طيبان فاضلان . ومربية فاضلة عن الأخطار
والمضار التي تنشأ من هذه العادة ، مثل ضعف العقل والجسم والوقرة
الجنسية . و . و . الى آخر ما ذكروه من أعراضها وأمراضها . *

ثم تكلمت كما تكلموا . فبينت الحديث على أساس أن الاسلام دين
الطهارة ، وأن عمله مع الفرائض هو تقويمها . وتنظيمها . وتوجيهها الى
ما فيه خير الفرد والمجموع . *

وجاء دور الاسئلة فانهاالت علينا . وانهالت من كل جانب ، وكان

منها هذا السؤال الذى يتصل بموضوع الحديث عن القرآن ، وهو : هل
فى القرآن الكريم آية تنص على تحريم العادة السرية ؟

وأذكر أننى قلت فيما قلت ان مستوى القرآن أرفع من أن يهبط
الى الحديث عن هذه الصفات والحقائر ، ولكن قضايا العامة : وقواعده
الكلية وإشاراته الموحية وعباراته الهادية ، تسع ما كان وما هو كائن .
وما سيكون من شئون الكون والحياة ، ثم ذكرت قوله تعالى « والذين هم
لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين »
فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون »

وعندما وصلت الى قوله تعالى « فمن ابتغى وراء ذلك » كان فى نبرة
صوته . وإشارة يده . ما نبه السامعين واسترعى أنظارهم الى ما وراء
ذلك ..

وهكذا نجد فى القرآن النور الهادى « للتى هى أقوم » كما يقول
الله فيه .

فى دار السودان

ودعيت الى لقاء محاضرة فى دار السودان عن بدء خلق الانسان
فأريت أن أخرج عن المألوف المعروف فى اعداد المحاضرة . وألقائها مكتوبة
أو محفوظة ..

فأثنى بين طلاب سعدت بلقائهم فى فصول الدراسة بالازهر
وطلاب فى الجامعة يسعدنى أن القاهم فى دارهم . وزملاء يسعدنى أن
أشركهم فى الحديث معى بين أبنائهم وزملائهم ..

ثم كانت المحاضرة . أو المناظرة . أو المناظرة أمتع مما كنت
أتوقع ..

قام أحد الشبان يدافع عن متطق ابليس حين أبى أن يسجد لآدم
وقال لربه وهو يخاطبه « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين »

وسألنى قائلا : ألم يكن ابليس على حق فى تبرير موقفه من آدم ؟
ليست النار المضيئة خير من الطين المعتم المظلم ؟

وأذكر أنني قلت فيما قلت : ومن أدراك أن النار خير من الطين ؟
هل تنبت النار الزهور التي نراها وتنعم بشذائها ؟ هل تخرج منها
الأشجار وتتدفق منها الأنهار ، وتتألق على لهبها ما ترى من خضرة الزرع
ونضرة الحقل والمروج ؟

وقام آخر يسأل : اذا صحت نظرية « داروين » وثبت أن أصل
الانسان قرد . فكيف نخرج من التعارض الذي نجده بين القرآن وبين
هذه الحقيقة العلمية ؟

وأذكر أنني قلت فيما قلت : ان هذه النظرية - أولا - مازالت حتى
الآن مبنية على فروض وظنون ، وقد عارضها علماء كثيرون بكثير من الحجج
والبراهين فلم تصل بعد الى درجة الحقائق العلمية الثابتة المقررة .

وثانيا : لو كانت صحيحة ما خرجت بالانسان عن أصله الذي نص
عليه القرآن فانا وأنت كل انسان وحيوان من ماء وطين ، ولو خللت
أجسامنا الى ماء وملح وجير وحديد .. و .. والى آخر العناصر التي تقوم
عليها وتتركب منها لوجدناها من هذه الأرض التي يقول الله فيها « منها
خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

وثالثا - لماذا نتشبهت بهذه الآراء ، ونثير حولها اللغط وهي أن
صحت تسوء ولا تسر ، وتردنا الى الوراء ، ولا تدفعنا الى الامام ؟ اليس
خيرا لنا أن نطمئن الى ظاهر قول الله سبحانه « لقد خلقنا الانسان في
أحسن تقويم » ؟ وقوله تعالى « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر
والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

(قطع الغيار ..)

وقد فكرت كما فكر غيري في قطع الغيار التي وصل تقدم الطب فيها
الى درجة أن يجعلها ملتصقة بجسم الانسان ، تؤدي فيه الوظيفة التي كان
يؤديها العضو الاصلي ، فلم أجد فيها مدعاة شك . أو ريب في الايمان بالله
كما قد يتوهم المتوهمون ..

ذلك لأن مقلة العين التي نقلت من جسم رجل حي حكم عليه
بالاعدام الى مجرى عين رجل آخر فقد بصره ، ليست من صنع انسان ،

ولاذ يد لأحد فى تكوين خلقها • وتزويدها بالاجهزة العصبية التى تضلها بالمخ أو الدماغ أو النخاع ، وكل ما للطب من عمل فى هذا هو النقل والتفريق • والاسترشاد بما يعرف من حكم الحكيم فى التطبيق ، وتوخى الوضع الدقيق ، وما بعد ذلك من التحام عصب بعصب ، واتصال شبكة بشبكة • وارتباط عضو بعضو أو جسم • إنما هو من عمل الله • لا من عمل أحد سواه ••

ومالنا نذهب بعيدا وقد جربنا أو جرب الكثير منا الأسنان الطبيعية والأسنان الصناعية ، ورأينا الزهرة التى يصنعها الله من طين الأرض يتضوع شذها • ويتألق سناها ، والزهرة التى يصنعها الإنسان من ورق أو غير ورق ليخدع نفسه بمظهرها • ويتغافل عن جوهرها •

ان كل شئ صنعه الله بيده لا يمكن لمخلوق أن يصنعه ، وكل شئ أبدع الله خلقه لا يمكن لإنسان أن يبدعه ، بل ان مجرد ايجاد خلية واحدة حية فوق طاقة الطب وقدرة الإنسان أيا كان • فى أى زمان • وأى مكان •

وليس معنى هذا أن نغمض أعيننا • ونسد آذاننا • ونعطل عقولنا ونهمل العمل على استخدام ما خلقه الله فى الأرض التى تقلنا • وفى السماء التى تظلنا ، بل هناك ألا نشعر بالفور كلما وجدنا خيطا من النور ، فمن وراء تفكيرنا ، وتقديرنا قوة عليا ندين لها بكل ما نصل اليه ، أو نحصل عليه ، بل ندين لها بكل ما نملك من أدوات الإدراك والعمل فى هذه الحياة •

وهذا هو القرآن يملأ الأذان بهذا النداء الذى ينبعث من السماء « هذا خلق الله فاروني ماذا خلق الذين من دونه » •

هذه القصص :

قبل أن أشرع فى شرح ما وقفنا عنده من آيات أحب أن أجيب على سؤال تلقينته من قارىء يقول فيه : ما رأيكم دام فضلكم فيمن يقولون ان محمدا تلقى عن « بحيرى الراهب » بعض ما جاء فى القرآن من قصص واحكام ؟

والجواب عن ذلك - من هذه القصة وحدها - يكفى السائل وغيره فقد ظللنا نحكيها ونرويها ونستقيها من معانى القرآن قرابة ثلاثة اشهر

ولما نفرغ منها ، فاذا لوحظ مع هذا أن محمدا عليه السلام لم يكت مع بحيرى في رحلته الى الشام الا ساعة من نهار كان من العبث ضياع الوقت في تفنيد هذه الغرية المتداعية المنهارة ، واذا لوحظ مع ذلك أن القرآن حافل بقصص كثيرة أخرى كقصة ابلّيس مع آدم . وقصة الملائكة معه ، وقصة مريم ابنة عمران وعيسى عليه السلام ، وزكريا ويحيى . وادريس . وقصة أهل الكهف ، وقصة موسى مع العبد الصالح . وقصة نوح مع قومه . و . و . الى آخر ما لا يتسع لسرده هذا النطاق ، اذا لوحظ هذا ظهرت قيمة هذه الحرافة السخيفة التى يروج لها الأغبياء من أعداء الاسلام . . بل ان القرآن يقف من القصص الموجودة في غيره من الكتب موقف المصلح لها . المصحح لما دخلها من تحريف وتزييف .

بل ان ما يتفق منها مع ما جاء فيه نلحظ في طريقة عرضه لها اختلاف لا يمكن رده الى عمل انسان في مثل حياة رجل أُمى لا يقرأ ولا يكتب ولا يحسب مثل محمد عليه الصلاة والسلام .

فمثلا قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب ذكر فيها أنهم لبثوا في كهفهم ثلثمائة سنة شمسية ، وجاء في القرآن أنهم « لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا » ثم على حسب الفرق بين عدد السنين الشمسية والقمرية فتبين أنه تسع سنين كما جاء في القرآن .

هذا اذا لم نذكر مغزى الاختلاف في طريقة العرض والبسط .
والتفصيل .

والقرآن - مع هذا - لا يزال يتصدى ويتحدى ، ولا يزال علم الأولين والآخرين يقف منه موقف الخادم له لا الحاكم عليه .

رسالة أخرى

١ - أوجو أن يعلم السادة القراء الذين كتبوا الى يستفسرون عن بعض آيات في بنى اسرائيل لم نعرض لها في القصة التى ذكرناها أننا سنتحدث عنها بتفصيل طويل عندما نصل الى موضعها بإذن الله ، وليطمئن الأستاذ محمد كامل شكيان الوكيل الأول لجمعية الطريق المستقيم بكفر الذوار الى أننا سنوافيه بما يبتغيه عند الحديث عن تفسير قول الله تعالى « كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة » .

٢ - يقول الأستاذ محمد طلعت بالفيوم : وما رأى فضيلتكم فى قول الله لسيدنا عيسى عليه السلام: « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة » ؟ ثم يجيب على سؤاله من حيث لا يشعر بأن الآية صريحة فى أن اتباع عيسى هم الذين آمنوا حقاً برسالته، وأنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبياً ، ثم يعود فيسأل : كيف يكون لليهود السيطرة على كثير من أمم العالم فى عصرنا هذا ؟

الجواب على هذا قول الله « ضربت عليهم الدلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباعوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة » وقد وصفهم الله بأنهم « ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الارض » وليس لهم الآن من حبال الا الاموال يشترون بها الذمم والضمان ، ويسرون بها بعض الحكومات « فسيفقونها ثم تكون حسرة ثم يفلبون » .

٣ - وبعت الأستاذ حافظ عمارة وكيل ادارة جامعة عين شمس يؤيد ما قيل من أن هلاك فرعون لم يكن من أجل بنى اسرائيل ، وانما كان لتألهه وتجبره كما ذكرنا ، وأضاف الى ذلك استهانتهم بموسى وهارون وهما رسولا رب العالمين كما حكى القرآن عنه قوله : « أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين » وللاستاذ جزيل شكرى وتقديرى . وأسأل الله أن يتقبل دعاءه .

٤ - وكتب السيد عبد الرازق الجمال يعتب على لاهمال الرد عليه فى تفسير عدة آيات ذكرها وقال : يا أستاذ .. يا شيخ .. يا عالم .. يالى ناكر اسمك .. الخ ، واؤكد للسيد المحترم أننى لم أتلق منه خطاباً قبل هذا ، وأنى - اذا مد الله فى عمرى حتى أصل الى موضوع الآيات التى ذكرها - سأوافيه بالشرح الذى ينشر له صدره .

٥ - أما الذين طلبوا الى طبع ما وفقنى الله اليه فى كتاب ، فاشكرهم على جميل تقديرهم . وأرجوا أن أكون عند حسن ظنهم ، والله الموفق . والله المعين ..

تذكير ..

والآن يحسن بنا أن نعود الى ما وقفنا عنده ، ونستأنف السير
فى عرض ما نستطيع فهمه من معانى القرآن على النهج الذى توخيناه ..
لقد وقفنا عند قوله تعالى لبنى اسرائيل : « واذا أنجبناكم من آل
فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى
ذلك بلاء من ربكم عظيم »

ولعل من المناسب أن نربط هذه الآية وما يليها بما سبقها لى
نربط فى أذهان القراء وحدة النظام الذى قام عليه القرآن ..
لقد بدأ القرآن بكلمة « الحمد لله رب العالمين » والحمد راس
الشكر ..

ثم عاد بعد تفصيل الهداية والمهتدين . وبيان الضلالة والضالين
من الكافرين والمنافقين فقال : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم
والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء
بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » وفهمنا من
ذلك أن الباعث على العبادة يجب أن يكون هو الشعور بالشكر .

ثم عاد بعد بيان مصير المؤمنين والكافرين فقال : « كيف تكفرون
بالله وكنتم أمواتا فأحياكم » ثم قال : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض
جميعا .. » ثم ذكر الناس بنعمة أخرى آثرهم بها على غيرهم فقال : « واذا
قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة » ، ثم ذكر قصة الملائكة
مع آدم ، وقصة ابليس معه ومع زوجته وكلتا القصتين يحتل فيها آدم
وبنوه منزلة التكريم من الملائكة والحسد من ابليس وجنوده وينتهى سياق
الكلام فى هذا المقام الى نتيجة لا ممدى عنها ، وهى ضرورة أن يشعر
الناس نحو رب العالمين بوازع الشكر .

ثم اتجه الخطاب رأسا الى بنى اسرائيل بعد الحديث عن ابليس
فكان أول أمر وجهه الله اليهم قوله « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى
أنعمت عليكم .. » والفرض من الذكر الشعور بوازع الشكر ..

ثم يعرض القرآن أطوار حياتهم التى اتسمت بما عرفنا من صفات
الفدر والمكر . والكفر . ويذكرهم بنعم الله عليهم اذ أنجىكم .. واذا .
واذا . وسنرى ما بعد اذ .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الدار القومية للطباعة والنشر

ol.
bx.
04
4
8

Bibliotheca Alexandrina



0417612